# خطبـــة الوداع
# من منظور عـــام
# للخطبـــة الجاهلية والإســـلامية

بحث مقـــــــدم من :

د / عبد الكريم احمـــد فـــراج

## تمهيـــــــــــد :

تحدث كثير من مؤرخى الأدب والمشتغلين به عن نشـأة الفن الخطابى وكادوا يجمعون على أنه نشأ مع الإنسان ، وهو فن نثرى قديم ، وربما كان من اقدم الفنون الأدبية .

ومعلوم أن الإنسان لا يسير على وتيرة واحدة فتراه هادئا تارة وثائرا تارة أخرى ، وفى كلتا الحـــالتين يدعو إلى ما تنفعل به نفسه مستخدما القول فى إثارة عواطف المحيطين به ولا سيما إذا كان خطيبا لديه مكونات الخطابة ، وتوفرت فيه الموهبة .

« لأن الخطابة كسائر الأنواع الأدبية نشأت فى الفطـرة يفيض بها وجدان الخطيب » (١)

والخطابة ضرورة من ضرورات الأمم والمجتمعات ، وليس أدل على ذلك من قول الجاحظ : « الخطابة شىء فى جميـــع الأمم ، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة » (٢)

---

(١) فن الخطابة وتطوره عند العرب لايليا حاوى ص ١٤ دار الثقافة بيروت لبنان بدون تاريخ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ١٢/٣ ط ٤ مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٥ م

وذلك لأنهم فى حاجة ماسة إليها فى كل أحوالهم مع اختلاف بواعثها ، فعندما تستبد بالناس الأهواء ويكثر النزاع فيهم تراهم يتخذون من السيف أو السلاح حكما تارة وتارة أخرى يلجأون الى الكلمة البليغة ، أو الخطب التى لها تأثير فى النفوس ، والمصحوبة بالدليل والحجج الدامغة ، ولا عجب فى هذا لأن طبيعة الانسان جبلت على الدفاع عن النفس وعن القوم ، وربما كانت الكلمة البليغة أقوى من السيف وأمضى أثرا منه فتغيرهن الحال ، وتبدل العدو صديقا ، والجفاء مودة، ومن ثم كانت الخطابة هى الأداة الأولى فى الدعوة الى اعتناق راى أو عقيدة فى سلم أو حرب ، فهى التى تربى النفـــوس فى السلم ، وهى التى تقود الى ساحات الوغى ، وتشـــعل نار الحماسة فى النفوس ، ومن ثم تستعذب الموت فى سبيل نيل المراد وتحقيق الغاية ٠

ولقد أحدث الإسلام ثورة هائلة فى حياة العرب المختلفة دينيا ، وسياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، وكانت هـذه الثورة تهدف الى تغيير معالم الحياة العربية والوصـــول ببنى الانسان الى طريق الهداية والدعوة الحقة وهى فى حاجة الى خطباء يقفون وراءها ويذودون عنها ، ويؤيدون مبادئها ، ويعملون جاهدين على نشرها واعتناقها ، وفى المقابل كان هناك تيار آخر يعمل على تقويض دعائم هذه الدعوة ، والحيلولة دون انتشارها وشيوعها عن طريق الخطابة أيضا ٠

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أثر الإســـــلام فى فن الخطابة وكيف أخذ بيدها من أول الأمر وارتقى بها حتى

وصلت الى ذرا المجد . وإلى منزلة راقية وعالية ، ولعـــل أصدق دليل على علو مكانة الخطابة وأهميتها أن الله بعث الخطباء أنبياء ولم يبعثهم شعراء فاتخذوا الخطابة إحـدى وسائلهم فى تبليغ دعواتهم ، وإقناع أقوامهم عن طريق إثارة المشاعر والأفكار وإقامة البراهين والحجج الدامغة ، ومن ثم دعا موسى ربه قائـلا :

« واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » (٣)

ونظرا لأهمية الخطابة فى مختلف الميادين جعل منها ـ صلى الله عليه وسلم ـ أداة لدعوته ، فكانت لسانهـا المعبر عن مبادئها ومحاسنها ، كما كانت تعمل على إقناع النـاس بها متخذة من الحجة الدامغة والبراهين الساطعة دليـــلا قويا ، وبهذا أخذ فن الخطابة عند رسول الله المكان اللائق به بين فنون البيان الأخرى « فأقبل عليه كما أقبـــل على غيره لوظفه فى تلك الوظيفة الدينية الجـــــديدة ويخاطب كل جمع » (٤)

وكانت خطب المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصافح أسماعهم ، وتلامس شغاف قلوبهم وعقولهم ، ولا عجب « فقد

---

(٣) سورة طه الآيتان : ٢٧ ، ٢٨
(٤) تأملات فى البيان النبوى د/ابراهيم عوضين ص ٨٨ ط ٢ مطبعة السعادة ١٩٨١ م

هيأت الأقدار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكون المثل الأعلى للخطيب الممتاز » (٥)

ومن روائع خطبه - صلى الله عليه وسلم - « خطبة الوداع » وهى التى تمثل الدعوة الى التمسك بتعاليم الدين الحنيف ، والتحذير من البغى والعدوان والبعد عن سنن الجاهلية .

الى جانب بعض القضايا الاجتماعية الأخرى التى يقوم عليها المجتمع السليم ، فضلا عما فيها من الإبداع الخطابى الرائع لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم كان اختيارى لهذه الخطبة التى سأعيش معها تحليلا ودراسة .

وإنى لاستأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أن أعيش مع جانب من إبداعه الخطابى فى هذه الخطبة كى أحظى بشرف الحديث عن بيانه - صلى الله عليه وسلم - وليكون لى من حلاوة منطقه نصيب فكلامه - صلى الله عليه وسلم -

« قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ،

---

(٥) البيان النبوى د/محمد رجب البيومى ١/٥٩ ط دار الفكر القاهرة ١٩٨٠ م

وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهـــام وقلة الكلام » (٦)

وأملى فى الله أن يعيننى على تجلية بعض خصائص هذه الخطبة من حيث منهجها وأفكارها وألفاظها مستعينا فى ذلك بتوفيق الله أولا وبما كتب فى هذا المجال ثانيا ٠

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠

**دكتور : عبد الكريم أحمد فراج**

---

(٦) البيان والتبيين ١/١٧

النص :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم (١) عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير ٠

أما بعد : أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ٠

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة (٢) ابن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير

---

(١) التعبير بـ « أوصيكم » دلالة على حب النبى للمسلمين لأن الوصية لا تكون الا من محب لمن أحب ، فضلا عما فى هذا التعبير من الاحساس بدنو الأجل ٠

(٢) لأنه من عشيرته حتى يكون قدوة لغيره ٠

السدانة (٣) والسقاية والعمد قود (٤) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهـــل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : إنما النسىء (٥) زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عـــدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله .

إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله الســموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعـــة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان (٦) ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

---

(٣) خدمة الكعبة وكانت لبنى عبد الدار فى الجاهلية وقد اقرهـا الرسول لهم فى الاسلام .

(٤) قتل القاتل قصـــاصا .

(٥) تأخير حرمة الشهر الى ما بعده ان صادف حربا .

(٦) احترس ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله « بين جمادى وشعبان » لأن ربيعة كانت تحرم شهر رمضان وتسميه « رجبا » السيرة النبـــوية لابن هشام ٤/١٨٥ تعليق طه سعد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن (٧) وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (٨) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بالنساء خيرا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ٠

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ٠

أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، اللهم بلغت اللهم اشهد ٠

قالوا نعم : قال فليبلغ الشاهد الغائب ٠

---

(٧) العضل : الحبس والتضييق ٠
(٨) جمع عانية وهى الخادمة ٠

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصـــيبه من الميراث ، فلا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثـر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والنـاس أجمعين ، لا يقبل نه صرف (٩) ولا عدل (١٠) والســـلام عليكم ورحمة الله » (١١)

## مناسبة النص :

القى رسول الإنسانية الأول ومعلم البشرية الأعظـــم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الخطبة يوم عرفه فى السنة العاشرة من الهجرة وسط الجموع المحتشدة على عرفات وقد كان حوله خلق كثير .

« فقد كان مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك العام ما يزيد على عشرة آلاف صحابى كلهم خرجـــوا ليتلقوا الخير والبركة بالاقتداء والتأسى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجه ونسكه » (١٢)

---

(٩) الصرف : التـــوبة .
(١٠) العدل : الفدية .
(١١) البيان والتبيين ٢/٣١ هارون والخطبة فى سيرة ابن هشام والطبرى مع اختلاف يسير فى الالفاظ .
(١٢) السيرة النبوية الخالدة د/محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤١١ ط ١ .

بل قيل إنه اجتمع حوله عليه الصلاة والسلام - فى هذا اليوم المشهود « مائة ألف وأربعة وعشرون ، أو أربعـــــة وأربعون ألفا من الناس فقام فيهم خطيبا وألقى هذه الخطبة الجامعة » (١٣)

وسميت بخطبة الوداع لأنها آخر خطبة خطبها - صلى الله عليه وسلم - فى آخر حجة حجها « فكانت حجة البلاغ وحجة الوداع وذلك أن رسول الله لم يحج بعدها » (١٤)

ولقد شعر رسول الله بأهمية هذه الخطبة وبجـــــلال مناسبتها وأنها آخر خطبة له فى عرفة وبدا هذا واضحـــا فى قوله :

« فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » (١٥)

ولقد صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى إحساسه وشعوره فقد وافته المنية سنة إحدى عشرة للهجرة فى ربيع الأول .

---

(١٣) الرحيق المختوم للشيخ صفى الرحمن المباركفورى ص ٤٥٢ ط ٦ دار الريان ١٩٨٨ م

(١٤) السيرة النبوية لابن هشام ١٨٧/٤ تعليق طه عبد الرءوف مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٨ .

(١٥) الســـــابق ١٨٥/٤

ومما يدل على عظمة الموقف وجلاله وأهمية تلك المناسبة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمر أحد أصحابه (١٦) أن يردد بعض عبارات خطبته على أسماع الجمـــــوع المحتشـــــدة آنذاك .

ولعلنا نلاحظ أن المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قد أبدى جليل الحكمة فى تلك الخطبة ولا غرو « فما ظنك بخطيب يجتمع أمامه حشد لم يجتمع مثله من قبل ، ويحس أن عليه لهذا الجمع عبء الإبلاغ ليخرج من التبعة أمام ربه ، وأى إبلاغ ذلك ليس الأمر إبلاغ مسألتين أو مسألة ولكنه ارساء حقوق الإنسان على وضع وطيد » (١٧)

موضـــوعهـــا :

قامت هذه الخطبة على أساس « الدعوة إلى التمســك بتعاليم الإسلام الرشيدة ، والتحذير من البغى والعدوان ، وسنن الجاهلية ، وكأنه - عليه الصلاة والسلام - يتبرأ من مخالفة هذا الدستور الإسلامى وإهمال تنفيذه ، ويلقى بالتبعة على المقصرين ، ويلمح إلى انه يقف بين أتباعه الـــموقف الأخير » (١٨)

---

(١٦) وهو ربيعة بن أمية بن خلف السابق ٤/١٨٦
(١٧) البيـــان النبـــوى ١/٦٩
(١٨) من طرائف الأدب العربى مقالات وبحوث ص ٤٤ د/عبد السلام سرحان ط ١٠ سنة ١٩٧١ م

## المحتوى الفكرى للخطبة :

احتوت هذه الخطبة على أفكار كلية وأخرى جزئية ضمن الأفكار الكلية الدعوة الى الإيمان بالله وحـــده لا شريك له والتمسك بكتابه وتبليغ رسالته ، وبيان أن الإســـــلام دين المساواة ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ٠

وقد ضمت هذه الأفكار الكلية أفكارا جزئية منهـــــا مراعاة حقوق الإنسان وأداؤه للأمانة ، وإرساء القواعـــد والأسس التى تقوم عليها العلاقة بين الرجل وأهله ، واحترام حقوق الآخرين ، والبعد عن الربا وعدم التعامل به الى جانب أهمية النفس والمال والعرض فى الإسلام ، والسير على نظام الميراث الذى شرعه الشـــارع الحكيم ، والبعد عن وساوس الشيطان ونزغاته ٠

## منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى خطبـــة الـــوداع :

إن المتأمل فى منهج الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى الخطبة يرى أنه بدأها بمقدمة موجزة دقيقة مشوقة أثنى فيها على ربه ، وبين أنه مصدر الهداية ، وهذه المقدمة جاءت ممهدة لموضوع الخطبة ، ومتصلة بما بعدها ، ومن ثم كان لابد من العناية بها فى الخطبة لما لها من أثر فى نفوس المستمعين

« لأن براعة الاستهلال من أخص أسباب النجـــــاح فى الخطبة » (١٩)

والمقدمة فى الخطبة « تشبه المطلع للقصيدة والمدخل فى المسرحية والتمهيد الموسيقى للقطع الغنائية » (٢٠)

والناظر فى مقدمة الخطبة التى معنا يرى أنها مفضيه الى موضوعها ، فليس مضمون الخطبة وفكرتها إلا ما حوته المقدمة وهو الهداية والدعوة الى الدين القويم وعبادة الله الواحد الأحـد .

وبعد هذه المقدمة الموجزة يعرض المصطفى ـ صـلى الله عليه وسلم ـ أفكار خطبته التى كانت ـ مع إيجازها ـ شرحا واضحا وبيانا شافيا لما جاء فى القـــرآن الكريم الى جانب القضاء على المشاكل التى تهدد حياة الناس وسعادتهم فى دنياهم وأخراهم .

وأول هذه الأفكار الإيحاء بقرب نهـــايته ـ صلى الله ليه وسلم ـ وهذا ناقوس يدق على رءوس الناس ـ وينذرهم باليقظة والانتباه وقد وضح هذا فى قوله : « لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا »

---

(١٩) المثل السائر لابن الأثير رص ٦٤ البهية ١٣١٢ هـ

(٢٠) الخطابة فى صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش ١/٢٣ دار المعـــارف ١٩٦٥ م

وهذا ما حدا بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يضع أكبر عدد ممكن من التشريعات السامية بين جنبات هـــذه الخطبة الختامية بهدف إصلاح أحوال الأمة وتبصيرهـــا بأمور دينها ، ووضع حد فاصل بين حياتين : حياة العـرب فى الجاهلية وحياتهم فى الإسلام ، فقد كان عرب الجاهلية متفرقين شيعا شيعا وأحزابا ، يتقاتلون ويتنازعون طلبـــا للثأر ، ونهبا للأموال ، ولما جاء الإســـلام ضمهم تحت راية واحدة ولواء واحد ، ومنعهم من المنازعات والمشاحنات ، وأخذ بأيديهم الى جادة الصواب ، وقد وضح هذا ببيان الرسـول لموقف الشريعة من الدماء والأموال وما لهما من حرمة ومراعاة الإنسان لهذه الحرمة بالحفاظ عليها .

وينتقل الحديث بعد ذلك الى الأمانة وما لها من قيمة ، والربا وما له من خطورة علىحياة الناس ، وقد حذر ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الخيانة وعدم أداء الإنسان الأمانة لمن ائتمنه ، كما حذر من التعامل بالربا وبين مغبة ذلك وقد بدا هذا فى قوله ـ ﷺ ـ « فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس » (٢١)

ويبدو من هذا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعطى دليـــلا عمليا على وجوب الالتزام وتغيير المسلك الربوى الذى كان يسلكه الناس فى الجاهلية وإلزام الناس الحجةالفعلية

---

(٢١) حتى يكون قدوة بمن هو أقرب وأحب الناس اليه .

فى كل ما يدعو إليه ، وبهذا يعمق فكرة تحريم الربا عن طريق الإقناع النقلى والنعلى لخطورة هذا الداء وخوفا من استمراله فى النفوس ٠

وبعد هذا التحذير يبشر ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس ببشارة طيبة وهى كون الشيطان يئس أن يعبد فى الجزيرة العربية ولكن مع تحذيرهم نبههم الى المداخل والمنافذ التى يمكن أن يدخل منها الشيطان لابن آدم ، ولا غرو فالشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق فينبغى علينا أن نضيق عليه مجاريه ٠

وقد أكد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكرته بإن واسمية الجملة فى قوله الذى جمع بين البشارة والتحذير :

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحتقرون من أعمالكم »

ولما كان الجاهليون يتصرفون فى الشهور ويغيرونها حسب أهوائهم وما يتناسب معهم أخبر ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عام الوداع هو الفيصل فى هذه القضية حيث استعادت الشهور والأيام وضعها الحقيقى من حيث شهور الحل والأشهر الحرم وتسير مع واقع الحياة الصادقة ، ومن ثم حذر الرسول من التصرف فى الزمن وأشهر الحل والأشهر الحرم مرة أخرى ، وبين أن تغيير هذا النظام الإلهى زيادة

فى الكفر والضلال ، وقد بدا هذا واضحا فى قوله - صلى الله عليه وسلم - :

« أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم،ثلاثة متواليات وواحد فرد،ذو القعدة وذو الحجةوالمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ·

ويبدو من خلال هذه الفقرة الاحتراس الجميل الذى بدا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى قوله : « ورجب الذى بين جمادى وشعبان » لأن العرب كانت تسمى رمضان « رجبا » ·

ثم يتحدث الرسول بعد ذلك عن النساء وعن الاستعطاف الواجب نحوهن ، وقد جلى هذه الفكرة واختار لها ألفاظا رقيقة حانية تتناسب مع المعنى وأكد هذا بقوله : « إنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا »

ثم ينادى - صلى الله عليه وسلم - على المسلمين بأنهم إخوة فى الدين وفى العقيدة فلا يحل لمسلم أن يأخذ مال أخيه المسلم إلا عن طيب خاطر فلا ظلم ولا نهب كما لا يحل له أن

يضربه أو يقاتله وقد وضح هذا فى قول الرسول :

« فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »

ويوجههم الى الطريق الذى يبعد عنهم الزيغ والضلال ويكفل لهم السعادة فى الدنيا والآخرة وهو كتاب الله عز وجل - فيقـــول :

« فإنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله »

ويستمر - صلوات الله وسلامه عليه - فى توجيـــه الناس حيث يدفعهم الى المساواة والى التـآخى والتواضع وعدم الصلف والغرور بقوله معللا لذلك :

« أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم » ثم يؤكد هذه الفكرة ويعمقها بقوله : « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى »

ثم يختم - صلى الله عليه وسلم - خطبته بالفكرة التى بدأها بها ليؤكد أهمية الأعراض والأموال بقوله :

« أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من

الميراث فلا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير موليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله » .

وهكذا تسير الخطبة واضحة المعانى سهلة الأسلوب متماسكة البناء ، عرضها جذاب يمتع الأسماع ويثلج الصدور بما فيه من ألفاظ رائعة ومعان جميلة أخاذة ولا غرو فى هذا فهى خطبة سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح الخلق على الإطلاق وليس « إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أسبابها الطبيعية » (٢٢)

ولا يفوتنا أن الرسول فى استغفاره وتوبته واستعاذته من الشرور وسيئات الأعمال إنما يعطينا القدوة من نفسه وهو أنه يستغفر ويتوب ، وهذه دعوة لاستغفار المؤمنين وتوبتهم الى ربهم وهم أولى بذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وتعطى هذه الخطبة المثل الأعلى للحكام المسلمين وللزعماء وقادة الأمم والحكام كيف يكونون مع غيرهم من المحكومين ؟ وهى إعلان لحقوق الإنسان التى سبق بها الاسلام الأمم والحكومات المختلفة .

---

(٢٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعى ص٣٢٩ ط ٨ المكتبة التجارية بمصر ١٩٦٥ م

## أهم ما يميز أســـلوب الخطبة :

مما لا شك فيه أن العناية بالأسلوب فى النص الأدبى تعلى من شأنه وتعطيه فرصة أكبر للبقـــــاء ومن ثم كانت صياغة الأسلوب غاية من غايات الأديب وبخاصة الخطيب لأن الأسلوب الذى يتصف بالدقة والإيحاء يزيد من التأثير فى نفوس السامعين ويخلب أفئدتهم ويستميل قلوبهم ٠

والمراد بأسلوب الخطبة : الطريق الخاص الذى يسلكه الخطيب فى تأليف خطبته من حيث اختيار ألفاظه » (٢٣) ٠ وتعبيراته وعرض أدلته وبراهينه معبرا عن أفكاره ومعانيه ومدللا على ملامح شخصيته الأدبية والشعورية بهـــــدف الإقناع عن طريق الحقائق وإثارة الشعور والوجدان ٠

ومن هذا المنطلق كان لابد للخطبة من أسلوب يميزها عن غيرها من الفنون الأدبية الأخرى ٠

وغاية الخطيب فى أسلوبه لفت أنظار السامعين وشد انتباههم وجذب مشاعرهم وإقناعهم ولا يكون ذلك إلا بـ « أن يعرض آراءه فى أسلوب يجذب نفوس السامعين ويسترعى انتباههم ، ويهيج مشـــاعرهم ويجعلهـــم يعتنقـــون آراءه ويستصوبون أفكاره » ٠

---

(٢٣) أنظر أسس النقد الأدبى عند العرب لأحمد بدوى ط ٢ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٦٠ م

ولا يتأتى للخطيب تحقيق هذه الأهـــداف إلا إذا كان أسلوبه واضحا ، ولكى يكون كذلك لابد أن يكون « فى جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته غير مستكره لطبيعته ، ولا يتكلف ما ليس فى وسعه » .

ومما يميز أسلوب خطبة الوداع بدؤها بالحمد والثناء وهذه سمة لم تكن معروفة لدى خطباء الجاهلية من قبـــل وصارت سنة التزمها الخطباء بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ويبدا هذا واضحا فيما جاء عن الزهرى قال :

« كان صدر خطبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ..» (٢٤)

والناظر فى مقدمة خطبته ـ صلى اليه عليه وسلم ـ يرى أنه حمد الله وأثنى عليه وبين قدرته فى ملكوته ، وأن الهداية بيده ـ جل شأنه ـ وقد جعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه المقدمة وصية جامعة حين قال : « أوصيكم بتقوى الله وأحثكم على طاعته » .

---

(٢٤) خطب المصطفى / محمد خليل الخطيب ص ٩ دار الاعتصام ١٩٧٧ م .

فقد جمعت هذه المقدمة الموجزة مقاصد الإسلام كلها ، وهل الإسلام إلا حمد واعتراف بالألوهية ، وطاعة مطلقة لله ، وسير على طريقته ومنهجه .

وبهذا استطاع - صلى الله عليه وسلم - أن يمهد لخطبته باستثارة سامعيه وجذب انتباههم وهى مهمة المقدمة فى كل خطبة ناجحة .

والمقدمة جاءت هنا مفتتحة بالحمد والثناء على الله بما هو أهله والشهادتين .

وتتجلى البلاغة النبوية فى أسلوب هذه الخطبة فى الإبداع الخطابى ، وألفاظها دقيقة موحية واضحة الدلالة على معانيها ، ومن ثم نستطيع أن نقول بأن « أسلوبها هو الأسلوب السهل السائغ الممتع » (٢٥)

ومما لا يدع مجالا للشك أن أسلوب الخطبة قد فاق كل أسلوب ، وعلا كل كلام بشرى ، فقد استطاع عليه الصلاة والسلام أن يوجز المبادىء الرئيسية للإسلام فى هذه الخطبة، وأن يعرض معانيها الجميلة بألفاظ سهلة وعبارات واضحة بعيدة عن التكلف والتصنع الممقوت ، ومن ثم خلص الى حبات القلوب وأصاب الهدف .

---

(٢٥) الحياة الأدبية فى عصر صدر الاسلام د/محمد خفاجى ص ١٢٨ ط ١ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٣ م .

ويبدو أن توافر صفات الخطيب الممتاز فى سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أجل معانيها كانت تعـــانق الأســـلوب فى نقل أحاسيسه وتوضـــيح معانيه واستمالة سامعيه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام جميل الطلعة بهى الصورة ، عظيم الفطنة ، سليم اللسان ، وحسبك من صفاته الخلقية قول ابن أبى باهلة وكان وصافا متحدثا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان مما قال : « كان رســول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخما مفخما يتلألأ وجهـــه تلألؤ القمر ليلة البدر » (٢٦)

ولا شك أن لهذه الأوصاف أثرا واضحا يزيد من تعـلق المهتمين بالخطيب لا سيما سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى فاق كل البشر فى هذه الصفات الحسية كما فاقهم فى الصفات المعنوية .

« ويدهى أن الخطيب حين يتحدث إنما يظهر انفعـاله فى وجهه فإذا رزق صباحة ووضاءة فقد ضاعف انفعـاله من جماله وضاعف فى تأثر سامعيه » (٢٧)

وهكذا كان ـ صلى الله عليه وســلم ـ ولذلك اجتمعت للأسلوب فى خطب النبى كما بدا فى هذه الخطبة كمـــالات البلاغة البشرية .

---

(٢٦) محمد المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ص ٨ ط ٢ دار الكتب المصرية القاهرة .

(٢٧) البيان النبوى د/محمد رجب البيومى ١/٥٩

ولعل الجاحظ بنى على أسسها نظرته النقدية عندما قال متحدثا عن جماع البلاغة فى الخطابة :

« وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكـــون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدلة ، والنهجة نقية فإن جمع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام. وكمل كل الكمال » (٢٨)

وقد اشتملت خطبة الوداع على الأساليب المتنـــوعة انتنتقل بالسامع من أسلوب الى آخر فيكون ذلك ضمانا لشد انتباهه ، فاشتملت على الأساليب الخبرية كقـــوله عليه الصلاة والسلام : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم » والإنشائية كقوله : « إسمعوا منى أبين لكم » وقوله : « فليبلغ الشاهد الغائب »

كما اشتملت على الأساليب البيانية كالتشبيه فى قوله عليه الصلاة والسلام : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

وهنا أراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوضح المعنى ويثبت الفكرة فى اذهان الناس فشبه حرمة الدماء والأموال والأعراض بحرمة يوم النحر ، وحرمة شهر الحج ،وحـــرمة

---

(٢٨) البيان والتبيين هارون ١/٨٩

أم القرى لبيان مكانة حرمة هذه الأشياء . وبين « أن التشبيه منتزع من زمان ومكان المخاطبين فكان أدل وأقوى فى بيان الغرض المقصود وهو حرمة الدماء والأموال والأعراض »(٢٩)

والتنويع بين الأساليب ـ كما قلنا ـ وسيلة من وسائل الخطيب البارع التي يستعين بهـــا على توضيح أفكاره ، والتأثير فى سامعيه ولفت انظارهم .

والذى يبدو من هذه الخطبة أن الأساليب الحقيقية أكثر حظا من الأساليب المجازية كما فى قوله ـ صلى الله عليـه وســلم ـ :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، فمن كانت عنـــده أمانة ... وإن مآثر الجاهلية موضوعة ... إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ... »

ولعل مرجع ذلك أن هذه الخطبة الجامعة عنيت بالمعانى الذهنية وتقرير الحقائق ومثل الشريعة العليا ، وكل هـذه المعانى تحيا فى النفوس وينفعل السامع لها بقوة التـــأثير المبـــاشر .

وحاءت ألفاظ هذه الخطبة ملائمة للموقف ومنسقة مع

---

(٢٩) صور من البلاغة المحمدية د/عبد الحميـــد العبيسى/ ١١٥ ط ١ سنة ١٣٩٣ هـ .

المناسبة ، واضحة الدلالة على معانيها ومقاصدها ، لا تحتاج الى شحذ ذهن وكد فكر لأنها دقيقة فى مواضعها ، بليغـــة الدلالة على أفكارها ومعانيها ، مناسبة كل التناسب لحـــال سامعيها ، ولا عجب فهى نتيجة لتأدب إلهى رفيع تســـهل حتى تكون كأنفاس الصبح معطرة بشذى الورد كقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس »

وتشتد حتى تراها صرخة منذر ترى فيها التهـــديد والوعيد والانفعال الشديد كما فى قوله ـ عليه الصـــلاة والسلام ـ :

« والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غيـــر أبيه او تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والنـــاس أجمعين » .

ولا غرو فـ « النبى خير ناطق من البشر ، وقد كان فى براعة منزعة وإيجاز كلمة وفصاحة لفظه وجزالة قوله وصحة معانيه ، وصدق توجيهاته بالمحـــل الأرفع والمكانة التى لا تجهـــل » (٣٠)

وليقد تميز أسلوب هذه الخطبة بتأثره بالقرآن الكريم تأثرا بينا فاحتوت على بعض الآيات وهذا من قبيل التضمين

---

(٣٠) الحياة الأدبية فى عصر صدر الاسلام : ١٢٤ د/محمـــد عبد المنعم خفاجى .

من القرآن الكريم المعين الفياض الذى رشف من رحيقـــه الخلفاء والبلغاء وعلى رأسهم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هذا التضمين ما ورد فى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة فيحلوا ما حرم الله» كما ورد قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم » وقوله أيضا : « إنما المؤمنون إخوة »

والنص الأول مأخوذ من قول الله تعالى ـ : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهـم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين » (٣١)

والثانى مأخوذ من قوله تعالى ـ : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسـكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (٣٢)

والثالث مأخوذ من قوله ـ تعالى ـ : « إنما المؤمنـون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٣٣)

---

(٣١) سورة التوبة اية : ٣٧
(٣٢) سورة التوبة آية : ٣٦
(٣٣) سورة الحجرات آية ١٠

ويتضح مما سبق أن هذا تضمين جزئى وهو أخذ بعض آية ووضعها فى النص وهو مفيد وحسن .

ولم يستحسن نقاد العرب خلو الخطبة من القـــرآن الكريم لقوة التأثير فى نفوس السامعين ، وليس أدل علىذلك من قول بعضهم : « هذا الفنى أخطب العرب لو كان فىخطبته شىء من القرآن » (٣٤)

ويقول ابن الأثير وهو يتحدث عن التضمين :

« فأما الحسن الذى يكتسب به الكلام طلاوة فهـو أن يضمن الآيات والأخبار النبـــوية وذلك يرد على وجهين ، تضمين كلى والآخر جزئى ، فأما التضمين الكلى فهـو أن تذكر الآية والخبر بجملتهما وأما التضمين الجزئى فهو أن تدرج بعض الآية والخبر ضمن كلام فيكون جزءا منه» (٣٥)

ويبدو مما سبق أن التأثير بالقرآن كان واضحـا فى خطبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان مفيدا بل الخطب النبوية كلها « بحيث تستطيع أن ترد كل موعظة الى ينابيع الضوء التى تفجرت منها » (٣٦) من حيث مبناها ومعناها فهى :

---

(٣٤) البيـــان والتبيين ٦/٢

(٣٥) المثل السائر لابن الأثير تقديم د/أحمد الحوفى ، بدوى طبانة القسم الثالث ص ٢٠٠ .

(٣٦) العصر الاسلامى د/شوقى ضيف ـ ١١٧ دار المعـــارف دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

« تجتذى أسلوب القرآن الكريم وطريقة تصـــــويره ، وجمال تعبيره ، فتراها حلوة الألفاظ عذبة الكلمات سلســـة العبارات ، ومتجاورة الفقرات ، يتراوح فيها المبنى مع المعنى وتتلاحق فيها الأفكار متسقة متجانسة ، وتحق فيهـــــا الاستعارات ، وتلطف الكنايات ، وتصدق التشبيهات »(٣٧)

ولم تخل خطبة الوداع من أساليب التفصيل والتحليل عندما تطلب المقـــام ذلك رغبة فى تعميق الفكرة وتوضـــيح المعنى ، ومن ذلك قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن لنســـائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولايدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة ٠٠٠ »

فقد ذكر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيانا شافيا لهذين الحقين بين الرجل وزوجه وهذا كثير فى خطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولقد حرص الرسول على ترسيخ فكرة التآلف والمساواة بين الناس وتوكيد هذه المعانى فى أذهان السامعين والقارئين فجاء بالأسلوب مؤكدا بقوله : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ٠٠ » ثم زاد هذا التوكيد بتكرير هذه الجمل فى قوله : « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ٠٠ »

يقول ابن الأثير : « واعلم أن المفيد من التكرير يأتى فى

---

(٣٧) الحياة الأدبية فى عصر صدر الاسلام : ١٢٩

الكلام تأكيدا له وتشييدا من أمره . وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذى كررت فيه كلامك إما مبالغة فى مدحه أو فى ذمه أو غير ذلك » (٣٨)

ولقد حرص ـ صلى الله عليه وسلم ـ على تعميق المبادىء الإسلامية والتشريعات السامية التى احتوت عليها الخطبة فى أذهان السامعين وشد انتباههم بين الفقرة والفقرة عن طريق الاستفهام التوكيدى ويعقب ذلك بأن يشهد الله على ما يقول ، وقد بدا هذا فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد »

ولم تخل خطبة الوداع من بعض المحسنات البديعية اللفظيه والمعنوية كالسجع والجناس والطباق والمقابلة ، وجاءت كلها غير متكلفة ولا مصنوعة ، ومن نماذج المحسنات قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ، عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم »

ويبدو من النص تقسيم الجمل والجناس وبعض المحسنات الأخرى كالسجع وغيره وقد جاءت كلها طبيعية غير متكلفة ، ولا غرو فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفصح العرب بلا منازع ، وأدبه ربه فأحسن تأديبه ومن ثم أخذ العرب عنه الفصاحة بجميع وجوهها ، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ « لا يند فى لسانه لفظ ، ولا تغيب عنه لغة ، ولا تضطرب له عبارة ، ولا ينقطع له نظم ، ولا يشوبه تكلف»

---

(٣٨) المثل السائر القسم الثالث ص ٤

ولا يفوتنا أن ختام الخطبة بالسلام من الأشياء التى تميز بها أسلوبها عن غيرها ، وهذه سمة لم تكن معروفة لدى خطباء الجاهلية وإنما هى إسلامية خالصة ٠

## اهم ما تميزت به خطبةِ الوداع :

بعد هذا العرض والتحليل لخطبة الوداع يمكن القول بأنها تمثل الخطبة الإسلامية شكلا ومضمونا ، وقد تميزت هذه الخطبة بعموميتها وشمولها لحقوق الانسان ومراعاة آدميته بما فيها من معان شاملة لكل معانى الانسانية التى تكفل للانسان الحرية والكرامة والحياة الآمنة المطمئنة ٠

وتعد هذه الخطبة آخر ما قاله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الناس يوم الحج الأكبر ، وفى هذا ضرورة إشعار المسلمين بأهميتها والتزامهم بما جاء فيها من مبادىء وتشريعات ، فضلا عن أنها تعد إشارة لجل ما دعا اليه رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهى بمثابة توصية منه فى موقفه الخاتم بضرورة الالتزام الذى سبقت الإشارة اليه ، وبمثابة الخاتمة لخطبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخاتمة الشىء زبدته وخلاصته ، فهذه الخطبة جاءت ملخصة للكثير من المبادىء والتشريعات والحقوق الإنسانية المستقاة من القرآن الكريم تحقق للناس الخير فى الدنيا والآخرة ، ومن ثم كانت أفكارها صالحة لكل زمانومكان لأنها تشريع إلهى وفيض نبوى ٠

يقول الدكتور الشكعة (٣٩) « لم تخل خطبة للرسول من حكمة أو موعظة أو تشريع ، وخطبه - صلى الله عليه وسلم - على كثرتها كانت حلقات ثمينة فى سلسلة من الدرر متواكبة انتهت بخطبه حجة الوداع » .

والإسلام - فى جملته - كما يقول جمال الدين محمود (٤٠) « يهدف الى رسم إطار المنهاج الإلهى لحياة البشر فى كل زمان ومكان ، ولذلك غطى منهج العقيدة والأخلاق والتشريع بطريقة تجعله لا يقف أمام الاختلافات العارضة والمؤقتة بين بنى الانسان ، والتى لا صلة لها بفطرة الانسان »

ولقد تميز الاسلام عن غيره من الأديان بأن رسالته عالمية جاءت الى الناس كافة من جميع الأجناس والألوان وفى كل العصور بخلاف الأديان الأخرى كانت رسالتها ترسل الى قوم بعينهم وفى زمن معين ، قال تعالى :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٤١)

كما تميز الاسلام أيضا بالبناء التشريعى لا سيما الجانب الذى ينظم علاقه الانسان بغيره من الأفراد ، وعلاقة الفرد بمجموع الناس فى المجتمع ، وعلاقة المجتمع ككل بأفراده ، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى التى تجاوره أو تعاصره

---

(٣٩) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية د/مصطفى الشكعة كتاب النثر - ٦٩ ط ٢ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٤ م

(٤٠) اصول المجتمع الاسلامى بقلم د/جمال الدين محمود - أمين عام المجلس الأعلى للشئون الاسلامية / ١٠ العدد ٢٥٢ أكتوبر ١٩٨٣ م .

(٤١) سورة سبأ من الآية : ٢٨

وهذا منهج متكامل لأن القواعد العامة التى وردت فيه إلهيـــة المصدر بحيث تسمو على الفكر الانسانى (٤٢)

ومن هذا المنهج ما احتوته خطبة الوداع من مبـــــادىء وتشريعات وحقوق وواجبات تنظم علاقة الناس فيما بينهم ، وتكفل لهم الحياة الكريمة ، ومن هذه الحقوق : المحافظة على الدماء والأموال ، فقد حافظ الاســـلام على النفس الانسانية وحرم قتلها إلا بالحق ، وصان حرمتها من الضياع وكرامتها من الإهدار ، وعمل على حقن الدماء بنص القرآن والسنة ٠

فمن القرآن قول الله ـ تعالى ـ مبينا واجب الانسان نحو صيانة هذه النفس والحفاظ عليها ٠

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيـــا النـــاس جميعا » (٤٣)

وفى هذا بيان بأن إهدار النفس الواحدة إهدار للجنس كله ، وفى الحفاظ عليها حفاظ على الجنس البشرى كله ٠

وقوله ـ تعالى ـ « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما »(٤٤)

وحرم الاسلام قتل النفس إلا بالحق فشرع القصاص من

---

(٤٢) راجع مصـــدر رقم ١/٤٠
(٤٣) المائدة اية : ٣٢
(٤٤) النســـاء آية : ٩٣

القاتل فى القتل العمد حفاظا على حياة البشر فقال تعالى - « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »(٤٥)

وعن الذين يروعون النفوس الآمنة المطمئنة ويسلكون طريق السلب والنهب يقول الله تعالى مبينا جزاءهم ومنذرا إياهم بعاقبتهم الوخيمة لبعدهم عن تعاليم الاسلام : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » (٤٦)

ومن السنة ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .. » (٤٧)

وما روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « المسلم أخ المسلم ، لا يخونه ولايكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه ، التقوى هاهنا بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »(٤٨) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

---

(٤٥) البقرة آية : ١٧٩
٤٦ - المائدة الآيتان : ٣٣ ٣٤
(٤٧) رياض الصالحين باب ( تحريم الظلم والأمر برد المظالم )
(٤٨) المصدر السابق باب ( تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم )

وأقد كرم الاسلام نفس الانسان وصان حرمتها حيـــة وميتة ، فقد روى مالك وابن ماجة وأبو داود أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لمن أراد أن يكسر عظم ميت : « لا تكسره فإن كسرك إياه ميتا ككسرك إياه حيا »

وروى الخارى ومسلم عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد أنهما كانا قاعدين بالقادسية فمروا عليهما بجنازة فقاما فقيل لهما : إنها من أهل الأرض ـ أى من أهل الذمة فقالا : إن رسول الله مرت به جنازة فقام فقيل له : إنها جنازة يهودى فقال : « أوليست نفسا » ؟

فهذا تكريم من الرسول للنفس لمحض آدميتهـــا بغض النظر عن جنسها ولونها وعقيدتها ٠

وقد طالب الإسلام بأداء الأمانات الى أهلها فقال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » (٤٩)

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، واذا أؤتمى خان »(٥٠)

كما طالب بتحقيق الحرية والكرامة والإخاء والعـــدل والمساواة بين الناس فحارب الاستعباد والعنصرية ، وكرم بنى آدم ٠

ومن مظاهر هذا التكريم قول الله تعالى : « ولقد كرمنا

---

(٤٩) النساء آية : ٥٨

(٥٠) متفق عليه ـ رياض الصالحين باب ( الأمر بأداء الأمانة )

بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٥١)

وأمره للملائكة بالسجود لآدم فى قوله : « وإذ قلنـــا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ٠٠ » (٥٢)

« ولقد ركز الاسلام على حرية الانسان ذاته ، ولم يبـدأ بالنظر الى الحرية بحسبانها موقفا إزاء الغير يراد وضـع إطار له أو قاعدة تحكمه ، وهذا هو الفارق الجوهرى بين فكرة الاسلام فى الحرية وفكرة المناهج الوضعية » (٥٣) ٠

ولقد سوى الإسلام بين الناس فى الكيان الانسانى ، وفى الآدمية بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم وثقافتهم وأعراقهم فقال تعالى : « ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » (٥٤)

كما سوى بين الرجل والمرأة فى التكليفات الشرعية فى الأوامر والنواهى ، والحساب والجزاء فقال تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبـــة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٥٥)

وقال ـ صلوات ربى وسلامه عليه : « الناس سواسية

---

(٥١) سورة الاسراء آية : ٧٠
(٥٢) الاسراء من الآية : ٦١
(٥٣) اصول المجتمع الاسلامى : ٨٢
(٥٤) سورة القيامة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩
(٥٥) سورة النحـــل آية : ٩٧

كأسنان المشط ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » (٥٦)

ولقد حرص القرآن على ترسيخ مبدأ المساواة بين الناس فى البشرية والانسانية فأكد بشرية الرسول ومثليته فى قوله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم اله واحد .. » (٥٧)

وذم العنصرية بقوله مخاطبا الرسول — صلى الله عليه وسلم — : عندما زعم اليهود أن لهم ميزة تميزهم على غيرهم وهى أنلهم الدار الآخرة فانزل الله عز وجل على نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — مبينا وموضحا أنه لا ميزة لأحد على أحد إلا بالعمل فقا لجل شأنه :

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » (٥٨)

فالإسلام لم يميز بين فرد وفرد ولا بين جماعة وجماعة ، ولا بين أبيض وأسود وإنما جعل التقوى وحسن الصلة بالله هما المعيار العادل ، لا الجنس ولا اللون ولا الدم لأنها معايير لا تصلح للتفاضل بين الناس لكونها غير عادلة قال تعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

---

(٥٦) رواه الديلمى
(٥٧) سورة الكهف من الآية : ١١٠
(٥٨) سورة البقرة الايتان : ٩٤ ، ٩٥

شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٥٩)

وليس هذا الأمر « بغريب على الاسلام بل هو بداية ومنطلق لكل ما حواه تشريعه من حقوق أوجبها للانسان على اختلاف الجنس واللون والدين والوضع الاجتماعى ، فقد تميز الاسلام منذ ان أشرقت رسالته بتنظيم يحفظ للآدمى الحرمة التى جعلها الله له ، والتى لا تمس إلا بحق وجعل لهذه الحرمة أثرا فى حقوق غير المسلمين ، وواجه الاسلام فى صراحة وعدل كل ما يحدث بين الانسان وغيره من اختلاف ونزاع بسبب عوامل الجنس ، أو الدين ، أو المصلحة وضمن للآدمى من المخالفين حرمة تتصل بكيان الانسان وآدميته » (٦٠)

وقد تبنت المنظمات الدولية حقوق الانسان ففى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨ م أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمى لحقوق الانسان وأعلنته ، وأكدت شعوب الأمم المتحدة إيمانها بحقوقه الأساسية وبكرامة الفرد وقدره، وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية ، من هذه الحقوق : الحرية والإخاء ، والتمتع بكافة الحريات ، والحقوق ، دون تمييز بسبب العنصر أو اللون ، أو الجنس ، أو اللغة ، والمساواة بين الناس فى القانون ، أو مراعاة كرامة الانسان بعدم التدخل فى شئونه الخاصة ، وتساوى الحقوق بين الزوجين ٠٠ الخ (٦١)

---

(٥٩) سورة الحجرات آية : ١٣

(٦٠) أصول المجتمع الاسلامى : ٦٤

(٦١) أنظر الاسلام وحقوق الانسان - دراسة مقارنة - د/القطب محمد قطب ٦٠٥ وما بعدها ط ٢ دار الفكر العربى ١٩٨٤ م ٠

والناظر فى هذه الحقوق التى اشتمل عليها هذا الاعلان يرى أن خطوطها العريضة التى قامت عليها لم تكن وليدة العصر الحديث وإنما استنبق بها الاسلام المنظمات الدولية التى ترعى هذه الحقوق منذ اربعة عشر قرنا كما بدا فى خطبه الوداع سالفة الذكر والتى كشفت لنا عن تكريم الله للانسان.

« وما زالت المجتمعات الإنسانية تسعى لكى تدرك الآفاق العالية لهذا التكريم الآلهى ، وتسعى فى تحصيله ، ونجد تقدم كل أمة فى حضارتها مرتبطا أشد الارتباط بالكرامة الانسانيه فى مجتمعاتها ، فأعظم المجتمعات حضارة هو المجتمع الذى ترتفع فيه آفاق الكرامة الانسانية لتشارف القمة الاسلامية بشريعتها واحكامها ، وتباس المجتمعات الانسانية فى هذا العصر بمقياس التقدم والرقى أو التخلف والضعف هو على أساس ما تقره القوانين للانسان من كرامة وليس الإعلان العالمى لحقوق الانسان سوى محاولة لكى تستشرف النظم الوضعية على اختلاف أنظمتها ومذاهبها النص القرآنى الحكم فى قوله تعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم ... » (٦٢)

---

(٦٢) أصول المجتمع الاسلامى ٧٤ . ٧٥

## دراسة فنية للخطبتين الجاهلية والإسلامية :

ولما كانت خطبة الوداع تمثل الخطبة الإسلامية بكل معانيها رأينا أن نلقى الضوء على الخطبة فى العصرين الجاهلى والإسلامى من حيث البواعث والأغراض والسمات الفنية التى تجمع بينهما ، وما تميزت به الخطبة الاسلامية عن الجاهلية ٠

### بواعث الخطابة الجاهلية :

اهتم الجاهليون بالخطابة التى كانوا يعبرون بها عما يجيش فى صدورهم من أفكار وآراء ، ويصورون ما يطوف بعقولهم فى شئون حياتهم المختلفة ، وكانت صفة من صفات سيد القوم وشريفهم الذى يدعو الى الحرب وأخذ الثأر تارة ، وإلى السلم وحقن الدماء تارة أخرى ، فلابد لهذا السيد أن يكون خطيبا مفوها فصيح اللسان ، يترجم عن الفكر ، ويؤثر فى القوم ويقنعهم ويستميلهم ، وقلما يصل إنسان الى مرتبة الشرف والسيادة لا تتوفر فيه هذه الصفة، ومن ثم كثرت بواعثها ودواعيها ٠

« فأذواقهم الأدبية وتأصل ملكات البلاغة فى نفوسهم ، وتملكهم زمام الفصاحة ، ثم كثرة الحروب والخلافات بينهم، ثم تفرقهم قبائل وأحياء مع أميتهم الغالبة عليهم والتى

الجأتهم الى الاستعانة باللسان دون الكتابة ، ثم ضعف شأن الشعر ومكانته فى نفوس أشرافهم بتكسب الشعراء به، ثم سعة مجال الخطابة فيهم وكثرة أسبابها لديهم كل ذلك كان داعيا لذيوع الخطابة فيهم ، وانتشارها بينهم » (٦٣)

## أبرز موضوعاتها وأغراضها :

كثرت أغراض الخطابة فى الجاهلية وتنوعت مناسباتها طبقا لكثرة المواقف الداعية اليها من حياة الناس وظروف المجتمع وعاداته وتقاليده ، من هذه الأغراض :

ـ المنافرات والمفاخرات بالأحساب والأنساب وشرف المحتد .

ـ التحريض على قتال الأعداء والدعوة لمحاربتهم لكثرة ما بينهم من حروب .

ـ إصلاح ذات البين والعمل على التوفيق بين المتخاصمين .

ـ المحافل والوفادة على الأمراء والملوك للتهنئة أو التعزية والمواساة .

ـ التوجيه والنصح والإرشاد .

---

(٦٣) الحياة الأدبية فى عصر الجاهلية وصدر الاسلام د/محمد خفاجى ، د/صلاح عبد التواب ٨٣ ط ١ دار الزهراء للطباعة والنشر

ـ خطب النكاح ( الإصهار والزواج ) ٠

ـ الوصية من الكبار ٠

وسنسوق نماذج لهذه الأغراض ونكتفى منها بالقـــدر المطلوب ٠

فمما يدل على المفاخرة (٦٤) والمنافرة (٦٥) ما حدث بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، وهى اشـــهر المنـــافرات فى الجاهليـــة ٠

قيل لما أسن أبو براء عامر بن مالك تنازع فى الرياســة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ، فقال علقمة : كانت لجدى الاحوص وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها وأنا أســـترجعها ، فأنا أولى بهـــا منك ، فشرى (٦٦) الشر بينهما ، وسارا الى المنافرة ، فقـــال علقمة إن شئت نافرتك ، فقال عامر قد شئت ، والله إنى لاكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول منك قصبا (٦٧)

---

(٦٤) المفاخرة : تفاخر القوم بعضهم على بعض بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة ، والعز والثروة ، والكثرة والعدد ٠

(٦٥) المنافرة : المحاكمة فى المفاخرة ، وأصلها من قولهم : أينا أعز نفرا فهى التحاكم الى الاشراف من حكام العرب ليفصلوا بينهمـــا ، ويقضوا بالشرف لأحدهما

الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام د/محمد خفاجى و د/صلاح عبد التواب : ١١٠ ط ١ دار الزهراء للطباعة والنشر ٠

(٦٦) شرى : اســـتطار ٠

(٦٧) قصبا : المراد طول القامة ٠

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهارا ، فقال عامر : والله لأنا أنحر منك للقاح (٦٨) وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى السنة الشياح (٦٩) ... الخ ،

وعندما احتكما إلى مرم بن قطبة العزارى سوى بينهما وقال :

« يا بنى جعفر قد تحاكمتما عندى وانتما كركبتى البعير الأدرم تقعان على الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم .. » (٧٠)

وبهذا استطاع مرم أن ينزع فتيل الشر بين الطرفين خشية النزاع بينهما .

ومما يدل على التحريض على قتال الأعداء والأخذ بالثأر خطبة « هانىء بن قبيصة الشيبانى » التى حث فيها قومه على الحرب فى يوم ذى قار (٧١) وقد نجح فى مهمته وهى تقوية العزائم وحفز الهمم وفيها يقول : « يا معشر بكر هلك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى

---

(٦٨) اللقاح : الابل .
(٦٩) الشياح : القحط .
(٧٠) الأغانى للأصبهانى جـ ١٦ : ٢٨٤ وما بعدها مصور عن طبعة دار الكتب المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .
(٧١) اليوم الذى انتصر فيه العرب على الفرس .

الأعجاز والظهور ، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا بد ٠٠ » (٧٢)

ومما يدل على الإصلاح بين المتخاصمين وحقن الدماء خطبة مرثد الخير بن ينكف كى يمنع النزاع بين حيين سبيع ابن الحارث وهيثم بن مثوب بن ذى رعين ، وقد شب بينهما نزاع من أجل الشرف والسيادة ، وقد استدعاهما مرثد وحالفه التوفيق فى جمع شمل الحيين وأصلح بينهما ٠

يقـــول مرثد : « إن التخبط وامتطاء الهجـــاج (٧٣) ٠ واستحقاب الأجاج (٧٤) سيقفكما على شفا هوة فى توردها دوار الأصيلة (٧٥) ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبـل انتكاث العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتبـــاين السهمة (٧٦) ٠٠٠ وأنتما فى فسحة رافهة (٧٧) ، فقد عرفتم أبناء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى الى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب ســـوء سعيهم ٠٠٠ »

ثم ألقى كل من سبيع وميثم كلمة أكمل بعدها مرثد خطبته وختمها بختام يحث على السلم فقال : « لا تنشطوا عقـــل

---

(٧٢) الأمالى للقالى جـ ١ : ١٦٩ دار الآفاق الجديدة بيروت
(٧٣) امتطى الرجل هجاجه : ركب رأسه وتمسك برأيه ٠
(٧٤) اللاجة : التمادى فى الخصومة ، واللجلجـــة والتلجلج : التردد فى الكلام ٠
(٧٥) التورد : الاشراف على الماء ، الأصيلة : الأصل ٠
(٧٦) الســـهمة : القـــرابة ٠
(٧٧) ناعمـــة ٠
(٧٨) سكينـــة ٠

الشوارد ، وتلقحوا العون القواعد (٧٩) ولا تؤرثوا نيران الأحقاد ففيها المتلفة المستأصلة ... وأنيبوا الى السبيل الأرشد ، والمنهج الأقصد ، فإن الحرب تقبل بزبرج (٨٠) الغرور ، وتدبر بالويل والثبور .. ض (٨١)

ومن الخطب التى تحمل روح التعزية والمواساة والدعوة الى الصبر خطبة المنبب بن عوف يعزى فيها سلامة ذا فائش ويواسيه فى ابن له كبا به الفرس فخر ميتا .

يقول المنبب وهو يعبر عن حزنه العميق :

« أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان فى القلوب بما تنجأ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تخطأتك جلل ما لم تمن به الأجل ، وتقطع الأمل ، وإن حادثا ألم بك فاستبد بيمناك وصفح عن أكثرك لمن أجل النعم عليك ، وقد تناهت إليك أنباء من رزىء قصير وأصيب فاغتفر .. » (٨٢)

ومما يدل على الوعظ والنصح الخطبة التى ألقاها قس ابن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ وكان واقفا على جمل أحمر يحض الناس الى التوحيد والإيمان بالبعث والنشور ، وقد شاهده — صلى الله عليه وسلم — وهو يلقيها وأعلن رضاه عنها ، يقول قس :

---

(٧٩) ( لا تلقحوا العون ) مثل يضرب لعدم قيام الحرب واشعال نارها
(٨٠) الزبرج : السحاب الذى يسفوه الريح .
(٨١) الأمالى ١ : ٩٢ ، ٩٣
(٨٢) جمهرة خطب العرب ١/٣٠ البابى الحلبى

« أيها الناس اجتمعوا واسمعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . ايات محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبر واثام ... ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا ، يا معشر إياد أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ ... أقسم قس قسما بالله إن لله لدينا هو أرضى له من دينكم هذا .. » (٨٣)

ومن خطب النكاح والزواج خطبة أبى طالب فى زواج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وفيها يقول :

« الحمد لله الذى جعلنا من زرع ابراهيم ، وذرية اسماعيل وضئ لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قل : فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » (٨٤)

---

(٨٣) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ : ٣٠٨ وما تعدها ت هارون
(٨٤) السيرة النبوية لابن هشام تعليق : طه سعد ١ : ١٧٤

من السمات الفنية فيها :

جاءت ألفاظ الخطابة الجاهلية سهلة منتقاة واضحة المعنى - فى الغالب - وقد اعتمد العرب فى هذا على ملكاتهم الصافية ، وفطرتهم التى تقوم على الحس والتذوق للفظ ، والبعد عن التعنت والتكلف ، تراهم يختارون ألفاظهم ، ويجودونها ويهتمون بها فتأتى مطابقة لمقتضى الحال من غير قواعد مرعية ، او أسس مدروسة وموضوعة ، وليس هذا بغريب على أهل الفصاحة فى اللفظ ، والبلاغة فى القول ، فـ « تخير الالفاظ من شأن كل بليغ » (٨٥)

وخطبة قس بن ساعدة سابقة الذكر خير دليل على ذلك، ولا يعنى وضوح ألفاظ الخطابة الجاهلية خلوها من الغريب الذى هو فى حاجة لإماطة اللثام وكشف النقاب عنه ، فالناظر فى خطبة مرثد الخير السابقة يرى أن ألفاظها يسيطر عليها جو من الغرابة لأنها لا تتفق مع المقام ولا تطابق مقتضى الحال لأنها قيلت فى موقف صلح بين متنازعين ومثل هذا الموقف يحتاج الى ألفاظ حانية رقيقة تؤثر الألباب ، وتسترل السخيمة من قلوبهم لا كما ذكر الخطيب من ألفاظ ذات نبرة جافة وقاسية .

ونتج عن وضوح الألفاظ واختيارها وجريها على السجية وضوح الأساليب وسهولتها وبعدها عن الإغراب الى حد كبير

---

(٨٥) أمراء البيان لمحمد كرد على ١ : ١٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

مما يعكس اهتمام الخطباء الجاهليين بخطبهم والعنـــــاية بأساليبها ٠

وقد شاع السجع فى هذه الأساليب وكان الخطبـــــاء يهتفون من وراء ذلك الى شد نفوس سامعيهم ، وجذب انتباههم وملامسة شغاف قلوبهم بما فى السجع من موســـيقى رنانه وجرس أخاذ يخلب الالباب وتطرب له الآذان ٠

يقول صاحب الصناعتين مبينا قيمة السـجع فى الخطب مع بعده عن التكلف والاستكراه : « واعلم ان الذى يلزمك فى تاليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد » (٨٦)

وقد بدا هذا السجع البعيد عن التكلف والإغراب واضحا فى خطبتى هانى، بن قبيصة ، وقس بن ساعدة ، وقد أصاب الخطيبان فيه المدى ٠ حيث جاء فى موضعة يخـــدم غرض الخطيب ، يقول بعض النقاد : « ومن أوصاف البلاغة أيضا السجع فى موضعه ، وعند سماح القريحة به » (٨٧)

أما سجع الكهان فقد غطته مسحة من الإلغاز والتعميـــة والتكلف الممقوت ، ومن ثم كرهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال : « أسجعا كسجع الكهان » (٨٨)

---

(٨٦) الصناعتين لأبى هلال العسكرى : ١١٩ ط ١ مطبعـــــة محمـــود بك ١٣١٩ ٠

(٨٧) نقد النثر المنسوب لقدامة ١٠٧ ت د/طه حسين وآخرين ط ٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٨٣٨ م

(٨٨) اعجاز القرآن للباقلانى : ٢١ ط ١ مكتبة البابى الحلبى١٩٧٨م

قال الأزهرى : « إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كره السجع فى الكلام والدعاء لمشاكلته كلام الكهنة وسجعهم فيما يتكهنون فأما فواصل الكلام المنظوم الذى لا يشاكل السجع فهو مباح فى الخطب والرسائل (٨٩)

ومن المحسنات التى شاعت فى أساليب خطباء هـــذا العصر الازدواج (٩٠) والموازنة (٩١) المواتية للطبع السليم بقصد الروعة فى الأداء ، والجمال فى الصياغة ، والتأثير فى نفوس السامعين ، وتجلية الفكرة ٠

ومن الخطب الدالة على هذا الشيوع خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدى أمام كسرى أنو شروان بالمدائن ، يقـــول عمـــرو :

« إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطـــق الصواب ، وملاك النجعة (٩٢) الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الكرة ، وتوقف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنـــا كنفك يمتلس لك قيادنا ، فإنا أناس لم يوقس صفاتنا قراع

---

(٨٩) لسان العرب جـ ٣ مادة « سجع » طبع دار المعارف ١٩٤٤ م
(٩٠) هو أن يكون أواخر الجمل على وزن واحد ٠
(٩١) تساوى الجمل أو الجملتين فى عدد الكلام ٠
(٩٢) طلب الكلأ ٠

مناقير ، من أراد لنا قضما ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما » (٩٣)

ولقد جاء الازدواج واضحا في قوله : « وتوقف الخبرة خير من اعتساف الحيرة » والموازنة في قوله : « فاجتذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك » فضلا عما في النص من سجع وجناس .

وهكذا بحث مقتدرة الخطيب الجاهلي على البلاغة والبيان، وإحداث قيم صوتية لها أثرها في النفوس ، وذلك لأن الجاهليين « عنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء » (٩٤)

ومن سمات الخطبة الجاهلية أيضا إيجازها وقصرها لأن حياة العرب في هذا العصر اقتضت أن تكون خطبهم قصيرة - في الغالب - لأنهم فطروا على أداء المعنى بأوجز عبارة - وهذا بحكم فطرتهم - فضلا عن بساطة حياتهم وخلوها من التعقيدات والفلسفات ، والخطب لا تطول إلا مع الوفرة الثقافية ، والنقلة الحضارية، والنهضة الفكرية ،ومما

---

(٩٣) العقد الفريد لابن عبدربه ج ١ : ٢٨٦ ط ٣ ت/قميحة دار الكتب العلمية بيروت للبنان .

( اجتذ : اجتذب واستمل ، لم يوقس : لم يخدش ، اكتظم : احتمل واصطبر ) .

(٩٤) تاريخ الأدب العربي ( العصر الجاهلي ) د / شوقي ضيف : ٤٢٣ ط ١٠ دار المعارف ١٩٨٢

يوضح هذا الإيجاز خطبة هانىء بن قبيصة إذ لا مجـــال للتطويل فيها لأن الموقف موقف حرب وقتال ٠

ولا يفهم من غلبة الإيجاز على خطب الجاهليين خلوهـا من التطويل ، فنراهم يطيلون بعض الشىء فى خطب النكاح وإصلاح ذات البين كما سبق فى خطبة مرثد الخير ٠

يقول أبو هلال العسكرى : « إن الخطباء إذا خطبوا فى الصلح يوم العشائر أطالوا » (٩٥)

كما بدا فى خطبة هانىء بن قبيصة قصر الجمل والفقرات ـ فى الغالب ـ مع ضعف الارتباط بينها وبين أفكارها أحيانا ، ولعل هذا مرده الى عدم اكتمال النضج الفنى للخطابة ، فهى عبارة عن مجموعة من حكم شتى لا يربطها رابط فنى ولكن الخطيب اعتمد فيها على التأثير النفسى فحسب (٩٦)

وهناك بعض الخطب مع قصر جملها وفقراتها تجد رابطا قويا بينها كما فى خطبة اللبيب بن عوف سابقة الذكر وخطبـة مرثد الخير أيضا ٠

وقد تجمع الخطبة بين الطول والقصر ومع هذا يبـــدو عليها الارتباط بين الجمل والفقرات كما فى خطبة أبى طالب التى سبق ذكرها ٠

---

(٩٥) الصناعتين : ٢١٢ ت د/قميحة ط ١ سنة ١٩٨١ م

(٩٦) راجع أثر الاسلام فى الخطابة العربية أ د / ابراهيم عوضين : ٤٥ وما بعدها ـ طبع المجلس الأعلى للشئون الاســـلامية عدد ١١٨ ســـنة ١٩٧١ م

وقد تتنوع أسلوب الخطابة فى هذا العصر بين الخبـــر والإنشاء وهذا ناتج عن القريحة الصافية ، والفطرة النقية ، وتغير انفعالات الخطيب ، فإذا ما تحكم فيها ولبس ثوب الحكيم المجرب جاء **أسلوبه هادئا متزنا** قائما على الروية ، وإذا انفلت منه الزمام وغلبت على هذه الانفعالات الحـــدة والتوتر جاء أسلوبه متسما بالثورة والغليان .

ولعل الهدف من هذا التنويع تحريك الأذهان ، وتجديد نشاط السامعين ، ولفت أنظارهم ، وشد انتباههم ، وقد غلبت الأساليب الحقيقة على أساليب الخطابة فى هـــذا العصر وبخاصة فى خطب التعزية كما فى خطبة المليب بن عـوف التى سبق ذكرها ومنها قوله : : « أيها الملك إن الدنيا تجـود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان فى القلوب ... »

ومن استعمال الخطباء للأساليب الإنشائية ما ورد فى خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدى بين يدى كسرى وهـــو قوله : « فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بامرتنا بحلمك ، وألن أنا كنفك يسلس لك قيادنا ... »

والمتصفح لخطب الجاهلية يرى شيوع الحكمة والمثـــل فى أساليب الخطباء ولعل ذلك راجع الى أن معظمهـــم كانوا حكماء ، وكان العربى فى حاجة الى ما يؤيد به فكرته ، ويدمغ به حجته ، ويقنع به مستمعيه ، ويستمل نفوسهم وقلوبهـــم فتصد الى « إيراد الحكم ليؤثر فى مستمعيه بدلا من أن يسلك

مسالك الجدل المنطقى والبرهنة العقلية » (٩٧) الى جانب أنها « تضفى على الكلام زينة فوق ما تؤديه من إصـــابة المعنى وحسن التشبيه » (٩٨)

وقد شاعت الأمثال فى البيئة الجاهلية لأنها بيئة فطرية غلبت عليها روح الأمية ، واهلها كانوا فى حاجة الى خلاصـة التجارب كى يجعلوا منها نبراسا يسيروا على هداه فيمـا يتصل بشئون حياتهم ، وقد أشار ابن عبدربه الى قيمـــة الأمثال فى الكلام فقال : « ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الأمثال التى هى وشى الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلى المعنى، والتى تخيرتها العرب وقدمتها العجم ، ونطق بها كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهى أنقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، ام يسر شىء مسيرها ، ولا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل، وقال الشـــاعر :

ما أنت إلا مثل ســـــائر
يعرفه الجاهل والحابر » (٩٩)

وقال أبو عبيد : « الأمثال من حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبه كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من

---

(٩٧) الخطابة فى عصرها الذهبى د/ أحســـن النص ١٩ دار المعـــارف ١٩٦٣ م .

(٩٨) فى تاريخ الأدب الجاهلى د/ على الجندى ٢٦٠ ط ٢ دار المعـــارف ١٩٧٥ م .

(٩٩) العقد الفريد جـ ٣ : ٢ ت محمد سعيد العريان ط دار الفكر بيروت .

حاجاتها فى المنطق بكناية غير رتصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه » (١٠٠)

وقد استفاد الجاهليون بأمثالهم فى شئون حياتهم وفى خطبهم وفى وقائعهم وأحداثهم .

ومن الخطب التى شاع فيها الحكمة والمثل خطبة أكثم بن صيفى - وهو من حكماء العرب وخطبائهم - التى ألقاها أمام كسرى مذوها بما للعرب من عزة ومجد وسؤدد ، وفيها يقول :

« إن أفضل الاشياء أعاليها وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء ، آفة الرأى الهوى والعجز مفتاح الفقر ... شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء .. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ... يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، الصمت حكم وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز » (١٠١)

وبالنظر فى هذه الخطبة يمكن القول بأنها جاءت فى صورة الحكمة ، وبرزت فى ثوب المثل ، كل جملة منها يمكنها الاستقلال عن الأخرى دون تأثر الفكرة أو المعنى وإن كانت

---

(١٠٠) المزهر للسيوطى ١ : ٤٨٦ ت محمد أحمد جاد المولى وآخرين ط عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(١٠١) جمهرة خطب العرب ١ : ٥٦ ط ٢ طبع مصطفى البابى الحلبى ١٩٦٢

تنطوى كلها تحت الإطار العام للنص وهو النصح والتوجيه والارشاد ، وهو الرابط العام الذى يربطها حيث « لم تكن - أى الخطابة - قد نضجت فى ذلك العصر من حيث ترتيب أفكارها وتسلسلها ، وارتباط بعضها ببعض » (١٠٢)

وعن عدم ترابط الأفكار وتسلسلها مرده الى عدم وحدة الموضوع أو توحيد الفكرة الأساسية فى الخطبة الجاهلية . أو الى « كثرة الأمثال التى تشيع فى خطبهم والتى لا يمكن الربط بينها » (١٠٣)

وقد تأتى الخطبة كلها حكما وأمثالا كخطبة هانىء بن قبيصة (١٠٤) وتتناثر الحكمة والمثل فى خطب الجاهليين تعبيرا عن شيوعهما ، وكان الخطيب يهدف من ذلك الى الإقناع والتأثير والذيوع والشهرة .

وقد شاع الاستشهاد بالشعر فى خطب الجاهليين لأنهم كانوا يجمعون بين موهبة الخطابة والشعر للاقناع والتأثير وترسيخ الفكرة التى يهدف اليها الخطيب ، لأن الشعر « يضفى على الكلام جمالا وروعة » (١٠٥)

وقد بدا هذا فى خطبة مرثد الخير التى يدعو فيها قومه

---

(١٠٢) الخطابة فى عصرها الذهبى : ١٨

(١٠٣) أنظر الشعر الجاهلى د/محمد خفاجى : ١٦٨ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٣

(١٠٤) أنظر الشعر الجاهلى : ١٦٧

(١٠٥) فى تاريخ الأدب الجاهلى د/على الجندى ٢٧٣ ط ٢ دار المعارف ١٩٧٥ م

للصلح ، وفى ختامها يقول شعرا ليؤكد فكرته ، يقول مرتد :

« وأنيبوا الى السبيل الأرشد ، والمنهج الأقصد ، فإن الحرب تقبل بزبرج الغرور ، وتدبر بالويل والثبور ثم أنشد شعرا فقال :

ألا هل أتى الأقوام بذلى نصيحة
حبوت بها منى سبيعا وميثما

وقلت اعلموا أن التدابر غاورت
عواقبه للذل والقتل جرهما

فلا تقدحا زند العقوق وأبقيا
على العزة القعساء أن تتهدما

ولا تجنيا حربا تجر عليكما
عواقبها يوما من الشر أشأما

فإن جناة الحرب للدين عرضة
تفوقهم منها الزعاف المقشما » (١٠٦)

والناظر فى خطب الجاهليين يرى عدم اهتمام الخطباء بالمقدمات والخواتيم لأنه لا يعنيهم ترتيب او تنسيق وإنما يسيروا فى خطبتهم طبقا لما تمليه عليه فطرتهم (١٠٧) .

---

(١٠٦) الأمالى للقالى ١ : ٩٣ دار الآفاق الجديدة بيروت
تفوقهم : تسقيهم ، الفواق : ( ما بين الحلبتين ) الزعاف : السم ـ المقشم : المخلوط .
(١٠٧) راجع اثر الاسلام فى الخطابة العربية ١ د/ابراهيم هوضين : ٥١

ولا يفوتنا أن نبين أن الأفكار الجاهلية كانت تتردد بين العمق والبساطة ، ولعل هذا مرده الى البيئة الجاهلية نفسها التى تقوم على البساطة والبعد عن الفلسفات والتعقيدات « ولضآلة نصيب الجاهليين من الثقافة الفكرية » (١٠٨)

ومع هذا كان الخطيب الجاهلى يعمل على تعميق فكرته بكل وسيلة ممكنة عن طريق التمثيل بالشعر تارة كما سبق فى خطبة مرثد الخير ، أو عن طريق تكرير الفكرة كما فىخطبة هانىء بن قبيصة التى يقول فيها « يا معشر بكر هلك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الصبر دن أسباب الظفر »

ولقد حرص الخطيب فى هذه الخطبة على تكرير فكرته وغرضه فيها وهو الدعوة الى الشجاعة وخوض الحروب والمعارك .

وإذا كان الخطيب الجاهلى لا يهتم بوضع مقدمات وخواتيم تنتهى عندها الخطبة ، ولا بترتيب أفكاره وتنسيقها فإنه مع هذا كان يأتى بالسحر الحلال كما قال ابن الأثير :

« فإن البدوى البادى راعى الإبل ما كان يمر بشىء من ذلك يفهمه ، ولا يخطر ببالله ومع هذا فإنى يأتى بالسحر الحلال إن قال شعرا او تكلم نثرا » (١٠٩)

وعلى الجملة فإن أفكار الخطابة الجاهلية كانت تمتاز

---

(١٠٨) الخطابة فى عصرها الذهبى : ١٨

(١٠٩) المثل السائر جـ ٢ : ٣ ط ٢ دار نهضة مصر للطبع والنشر

« بقربها ووضوحها وبعدها عن التقلسف إذ كان خطباؤهم يستمدونها من بيئتهم الفطرية ، ومن شئون حياتهم الخالية من التعقيدات » (١١٠) وخطبهم خير شاهد على هذا .

وقبل أن ننهى حديثنا عن خصائص الخطبة الجاهلية ينبغى أن نشير الى استخدام العرب الجاهليين للمجاز فى خطبهم لانهم أدركوه بفطرتهم وتذوقوه بحسهم ، واحسوا ماله من أثر واضح فى الصورة التعبيرية ، وماله من دور فعال فى الإقناع والتأثير والاستمالة ، ومن ثم بدت الصور والأخيلة فى خطبهم ، ولا عجب « فإن المجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع » (١١١)

والخطبة الجاهلية جمعت بين الحقيقة والمجاز باجتذابه المختلفة ولا شك ان ذلك أكسب المعانى نبلا وفضلا ، وفخمها فى نفوس السامعين (١١٢)

وقد ساعدهم على هذا الجمع مواهبهم الخطابية المتمثلة « فى ملكاتهم البيانية . وما فطروا عليه من خلابة ولسن ، وبيان وفصاحة وحضور بديهة » (١١٣)

---

(١١٠) الأدب فى عصر النبوة والراشدين د/صلاح الهادى : ١٦٥ ط ٢ سنة ١٩٨٠ م .

(١١١) العمدة لابن رشيق ١ : ٢٦٦ ت محمد محيى الدين ط ٤ دار الجيل بيروت ١٩٧٢ م

(١١٢) طالع دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى : ٥٧ مطبعة السعادة .

(١١٣) تاريخ الأدب العربى ( العصر الجاهلى ) د/شوقى ضيف : ٤١٠ ط ١٠ دار المعارف ١٩٨٢

وحرص الخطباء على « أن يعجبوا السامعين لا ليقنعوهم فحسب بل ليثيروا فيهم لذة فنية ، ومتى وجدت هذه الفكرة فقد وجد الجمال الفنى » (١١٤)

وقد غلبت الأساليب الحقيقية على الخطابة الجاهلية لاهتمامها بالمعانى الذهنية وتقرير الحقائق عن طريق التأثير المباشر ، وكان المجاز وسيلة من وسائل الزيادة فى الإقناع والتأثير ، ومن ثم كان التصوير قليلا فى خطب الجاهليين وبخاصة خطب الوعظ التى تقوم على التأمل والروية حيث اعتمد الخطباء على اختيار الألفاظ وسوق الأدلة الوفيرة ، وإيقاعات الجمل فى التأثير والإقناع كما فى خطبة قس بن ساعدة .

وكانت الاستعارة والتشبيه والكناية أكثر ألوان التصوير شيوعا فى خطب الجاهليين وكلها توضح الفكرة وتزيد من التأثير فى النفوس ، كما أن الكناية أبلغ من الإفصاح (١١٥)

ومن النماذج الدالة على هذا خطبة حاجب بن زرارة التى يقول فيها :

« إن العرب أمة قد غلظت أكبادها ، واستحصدت مرتها ومنعت درتها ... وهى لك مسترسلة ما لاينتها سامحة ما

---

(١١٤) من حديث الشعر والنثر د/طه حسين مجلد ٥ : ٥٧٩ بيروت
(١١٥) انظر دلائل الاعجاز : ٥٦

سامحتها ، وهى العلقم مرارة ، والصاب غضاضة ، والعسل حـــلاوة ٠٠٠ » (١١٦)

وهنا استخدم الخطيب الكنـــاية كما فى قـــــوله : « واستحصدت مرتها » وهى كناية عن القوة والمنعـــــــة ، والتشبيه كما فى قوله : « هى العلقم مرارة والعسل حلاوة » ولا شك أن الكناية هنا أبلغ من التصريح ، كما كان للتشبيه أثره البين فى توضيح الفكرة للتأثير فى النفوس ٠

وقد يؤثر الخطيب المجاز ويفضله على غيره بقصـــــد الاقناع والتاثير والامتاع الفنى لإدراكه « أن المجاز يكسب الكلام وضوحا وسموا وجاذبيـــة لا يكســـبها إياه شىء آخر » (١١٧)

وقد بدا هذا فى خطبة مرثد الخير ومنها قوله :

« إن التخبط وامتطاء الهجاج واستحقاب اللجـــــاج سيقفكما على شفا هوة فى توردها بوار الأصيلة ، وانقطـاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد ، وانحلال العقد، وتباين السهمة وأنتيما فى فسحة رافهة ، وقدم واطدة ٠٠٠ »

واضح من النص أن مرثد آثر المجاز والتصـــــوير على الحقيقة فى التعبير عن فكرته ومعانيه كى يوضحها ويؤكدها

---

(١١٦) جمهرة خطب العرب ١/٢٢ البابى الحلبى ١٩٢٣ م
استحصدت : استحكمت ـ المرة : طاقة الحبل ـ الدرة : اللبن ، الصاب : شجر مر ـ غضاضة : احتمال المكروه ٠
(١١٧) النقد الأدبى الحديث د/غنيمى هلال دار نهضـــــة مصر للطبع والنشر ١٩٧٢ م

كما فى التعبير بـ « التخبط ، امتطاء الهجاج ، استحقاب الدجاج » وكلها تعبيرات خيالية قصد بها الخطيب تعميق فكرته ، واستمالة نفوس سامعيه وإقناعهم • وقد حذرهم من خوض الحرب ، وبين لهم مغبة ذلك ، وجسد لهم الخطر الناجم عنها حيث جعلهم كالواقفين على شفا حفرة بعيده بقوله : « سيقفكما على شفا هوة » وفى التعبير بقوله : « فى توردها بوار الأصيلة » يقصد الخطيب أن مجرد التفكير فى خوض الحرب كفيل بقطع أواصر المحبة والألفة بين الحيين المتنازعين ، وإذا كان هذا الخطر ناجم عن التفكير فى خوض المعارك فما بالنا بخوضها واستعار لهيبها ، لا شك أن الأمر سيكون أدهى وأمر من ذلك •

ولولا استعانة الخطيب فى أسلوبه بالتعبير الاستعارى والكنائى لما أمكنه أن يؤثر فى نفوس سامعيه ، ويوصل فكرته اليهم ويقتعهم بها •

وقد يجتمع المجاز مع البديع فى عبارة واحدة كما فى خطبة هانىء بن قبيصة من هذا قوله : « الطعن فى ثغر النحور اكرم منه فى الأعجاز والظهور »

وهنا جاءت الكناية معبرة عن الإقدام والشجاعة فى خوض الحرب ومصاحبة للبديع المتمثل فى الموازنة والمقابلة والجناس فهى آخر الجملتين •

وفى الجملة فإن الخطيب الجاهلى « كان يتمثل المعنى الكريم والصياغة السلسة واللفظ المختار الذى يؤثر فى المسامع ويغوص الى أعماق النفس مستخدما السجع حينا

والزاوجة حينا آخر ، متسربلا بالحكمـــة عامدا الى ضرب الأمثال » (١١٨)

وبعد هذا العرض للخطابة الجاهلية نريد أن نلقى الضوء على الخطبة الإســـلامية .

**بواعثهـــــا :**

كان الموروث من الخطابة الجاهلية ضيق الأفق محدود المعالم والمظاهر ، ولما جاء الإسلام « تهيأ للخطابة فى ظله من نباهة الشأن ، وارتفاع الذكر ، وعلو المكانة ما لم يتهيأ لهـا من قبل ، كانت أداة الدعوة واللسان الناطق بمحاسنهـــا ، تشرح للناس أسرارها ، وتبين مزاياها ، وتوضح خفاياها . وتحبب الناس فيها ، وتحثهم على الهدى والحق والرشـــد والصلاح ، وتجادل خصومها ، وتفنـــــد آراء المخـــالفين لهـــا » (١١٩)

فضلا عن كراهة الإسلام للشعر الذى يقوم على الحمية الجاهلية والمفاخرات والمنافرات بالاحساب والانساب .

**ولقد بدأ رسول الله دعوته بالخطابة** ، واعتمد عليهـــا منذ أن قام بأمر ربه يدعو عشيرته الأقربين الى عبـادة الله الواحد الأحد قال تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين »

---

(١١٨) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية د/الشكعة : ٥٢ كتاب النثر ط ٢ دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٠٧٤ م

(١١٩) الحياة الادبية فى عصرى الجاهلية الصدر الاسلام : ٥٥ ط ١ دار الزهراء للطباعة .

وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يذهب الى أحيـــاء العرب يعرض عليهم الدعوة الى الدين الجديد ، كما كان يلقى الناس فى المحافل والمجامع العامة كالحج ـ مثلا ـ ويقول لهم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا .

وبعد ذلك اتجه الى المدينة لدعوة الناس الى الله على بصيرة ، مبينا لهم محاسن ومحامد هذا الدين عن طـــريق ألفاظه العذبة ، ولسانه السمح . كما كان يخطب فى وفـــود العرب التى تجىء له شارحا لهم قواعد الدين الجـــديد ، ومفصلا لهم شرائعه ، ومبينا لهم آدابه وأحكامه قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم .. » (١٢٠)

و « لم يترك ـ صلى الله عليه وسلم ـ مناسبة أو فرصة يجتمع فيهـــا النـــاس إلا انتهزهـا لبيـــان أمر من أمور الإســـلام » (★)

ولا يخفى أن الاسلام أطلق ألسنة الخطباء من عقالهـــا حيث صار ذلك اللون الأدبى أرحب ميدانا ، وأوسع مجـالا مما كان عليه فى الجاهلية ، واخذت الخطابة تقوى شيـئا فشيئا وتنهض باعباء الدعوة ، ونشر مبادىء الاسلام وتعاليمه

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الاسلام كان إيذانا بتطور ذلك اللون الخطابى الذى كان يعتمد فيه رسول الله ـ صلى

---

(١٢٠) ســـورة النحـــل من الآية : ٤٤

(★) تأملات فى البيـــان النبوى د/ابراهيم عوضين ص ٨٩ ط ٢ سنة ١٩٨١ ) .

الله عليه وسلم ـ فى دعوته الى ربه على الحكمة والموعظة الحسنة ، قال تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... »

وإذا كان للخطابة دورها الفعال فى الإسلام حيث إنها أذاعت دعوته ونشرت مبادئه وتعاليمه لأنها « أقدر على شرح الحقائق ومناقشة المسائل ، فهى طريق الإقناع بالحجج العقلية ، والبراهين المنطقية ، والمؤثرات الوجدانية » (١٢١)

فإن للإسلام أثره على الخطابة لأنه نهض بها وأعلى قدرها وثبت دعائمها ، ونفخ فيها من روحه ، وكساها من جلال دعوته وكثرت بواعثها ، وتعددت موضوعاتها ، وتأثرت بالقرآن الكريم وببيان نبيه العظيم .

وهكذا كانت الدعوة الى الاسلام وتبصير الناس بتعاليمه باعثا قويا من بواعث الخطابة أيضا ، ومن النماذج الدالة على هذا خطبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بداية دعوته ونشر رسالته ، وفيها يقول داعيا القرشيين الى التوحيد والإيمان ومحذرا لهم من الشرك والطغيان بعد أن حمد الله واثنى عليه : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو انى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ،

---

(١٢١) الخطابة فى صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش ١/١١٢ دار المعارف ١٩٦٥ م .

ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنـــة ابدا أو لنار أبدا » (١٢٢)

وهكذا عبر ـ صلوات الله عليه ـ عن أفكار هذه الخطبة ومعانيها بأسلوب موجز بليغ ، بدا فيه ترابط هذه الافكار وتماسكها فى نسق بديع يدفع الى الإقناع .

يقول الدكتور الشكعة منوها بقيمة هذه الخطبة :

« إنها نمط جديد من القول بلاغة وفصاحة ، وإيمـــانا وبساطة ، وصدقا وعمقا لم يألفه العـــرب من قبل ، وتفصيل واضح بسيط ، نافذ بحقائق قد غفل الناس عن وجودها وهى ماثلة أمامهم كل يوم : « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون » مع مقدمة بليغة لا يخطىء المرء صدقهـــــا وحتبها ـ إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت النـــاس جميعا ما كذبتكم » (١٢٣)

ومن النماذج أيضا خطبته ـ صلى الله عليه وســـلم ـ التى بصر فيها الناس بأمور الآخرة من موت وثواب وعقاب وجنة ونار يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم فإن العبد بين مخافتين أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى

---

(١٢٢) جمهرة خطب العرب ١ : ٥
(١٢٣) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية : ٦٥

ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن فنيانه لأخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » (١٢٤)

ولقد كان مجىء الوفود الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعثا قويا من بواعث الخطابة أيضا فى هذا العصر، من هذه الوفود وفد بنى تميم الذى أعلن للرسول أنه ما جاء إلا للتبارى بالكلمة .

ولقد روت كتب السيرة أنهم دخلوا المسجد ونادوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد « فآذى ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صياحهم فخرج إليهم فقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال : قد أذنت لخطيبكم فليقل » (١٢٥)

ولا يخفى أن تقديم الرسول للخطيب على الشاعر دلالة على سمو مكانة الخطابة والخطباء فى هذا العصر .

يقول عطارد بن حاجب بن زرارة خطيب وفد بنى تميم والذى تولى الخطابة أمام رسول الله :

« الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله الذى جعلنا

---

((١٢٤)) اعجاز القرآن للباقلانى : ٤١ ط ١ مكتبة البابى الحلبى ١٩٧٨ م .

(١٢٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤ : ١٥٢ تعليق طه عبد الرءوف

ملوكا ، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل الشرف وأكثره عددا وأيسره عدة ، فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا برءوسهم وأولى فضلهم ؟ فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا وإنا نعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتونا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ثم جلس (١٢٦)

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لثابت بن قيس ثم فأجب الرجل فى خطبته فقام ثابت خطيبا فقال :

« الحمد لله الذى السموات والأرض من خلقه ، قضى فيهن أمره ، وسبع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من مضى أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمهم نسبا ، وأصدقهم حديثا ، وأفضلهم حسبا فنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس الى الإيمان فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا وأحسنهم وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق استجابة لله حين دعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحن ، فنحن انصار الله ووزراء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم ... » (١٢٧)

---

(١٢٦) السابق ٤ : ١٥٣

(١٢٧) السيرة النبوية ٤/١٥٤

## اغراضها وموضوعاتها :

مع إشراقة شمس الإسلام وبزوغ فجـــره الســـاطع وصلت الخطابة الى منزلة ســـامية من الرقى والازدهار ، وتنوعت أغراضها وموضوعاتها ، واتسعت مجالاتها ، وقامت مع هذا بحورها خير قيـــام ، وكانت تواكب العصر وكل المستجدات فيه ، من هذه الأغراض وفى المقدمة منها :

ـ دعوة الناس الى الإيمان بالله ورسوله وملائكتـــه وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقـــدر خيره وشره بدلا من المفاخرات والمناهرات التى كانت تهدف إليها الخطبـــة الجاهليـــة ٠

ـ الحث على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وإثارة العقيدة والإيمان فى النفوس حتى تقبل على الحرب بعزيمة صادقة وهمة متفانية ، بدلا من الخطب التى كانت تدعوا فى الجاهلية الى السلب والذهب والأخذ بالثأر والتحريض على الغـــارة ، (١٢٨)

ـ شرح آداب الدين وفضائله ، وتبيان أسراره ومزاياه، ولفت أنظار الناس وشد انتباههم الى ما يكفل لهم السعادة فى الدنيا والآخرة ٠

ـ التعبير عما يجيش فى النفوس من الدفاع عن رأى ،

---

(١٢٨) الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام د/عبد الحميـــد المسلوت : ٢٦٥ مطبعة السعادة ١٩٦٧ م

أو شرح لمنهج ، أو تمسك بمبدأ مما استلزمته الخـــــلافة الجـــديدة (١٢٩)

ومن الخطب الإسلامية الدالة على الحث على الجهـــاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وإثارة الإيمان والعقيـــدة فى النفوس كى تقبل عليه بنفس راضية خطبة أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ الذى يحفذ فيها همم الناس الى التوســع فى فتح البلدان وفتح بلاد الشام خاصة ، يقول الصـــديق بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله :

« ألا إن لكل أمر جوامع فمن بلغها فهى حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله كما ينبغى للمسلم أن يحب أن يخص به هى التجارة التى دل الله عليها ، ونجى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى النيا والآخرة » (١٣٠)

ومن الخطب الدالة على شرح آداب الدين وتعليم أحكامه وبيان فضائله خطبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى يعلم فيها الناس كيفية الصلاة ويوضحها لهم .

فقد روى أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول

---

(١٢٩) انظر الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٥٨

(١٣٠) جمهرة خطب العرب ١ : ١٨٩ ط ٢ مصطفى البـــابى الحلبى وأولاده ١٩٦٢ م .

الله - صلى الله عليه وسلم - خطبنا فعلمنا ، وبين لنـــا سننا وعلمنا صلاتنا فقال : « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ، ثم ليؤمكم أحدكم ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ ( غير المغضوب عليهم ولا الضالين ) فقولوا ( آمين ) يحبكم الله ، وإذا كبر وركع فكبروا واركعوا فإن الإمام يركع قبلـــكم ، ويرفع قبلكم ... » (١٣١)

ولما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة خطب فى الناس مبينا لهم مبادئه ومنهجه الذى سيسير عليه فى خلافته يقول أبو بكر - رضى الله عنه - بعد أن حمد الله واثنى عليه :

« أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطـــل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم الا إن القوى عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، والضعيف عندى القوى حتى آخذ الحق منه ، أقـــول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » (١٣٢)

## من السمات الفنية فيهـــا :

لقد غير الإسلام حياة الأمة العربية من ناحية معتقداتها وانظمتها وعاداتها وتقاليدها ، وقامت هذه الحياة على أساس

---

(١٣١) سنن ابى داود ج ١ : ٢٢٣ ط ١

(١٣٢) العقد الفريد : ج ٤ : ٥٩ ت احمد امين وزميليه ط ٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٢ م .

الإيمان بالله والسير على منهجه ، وقد أحدث هذا دويا هائلا فى الخطابة فازدهرت وتغير كثير من ملامحها ومعالمها .

ولم يقتصر تأثير الاسلام على حد الاطار الخارجى للأمة العربية بل « تجاوزه الى الميدان الفكرى الخالص » (١٣٣)

ومن هنا « اهتم المسلمون بتعديل منهج الخطبة بما يتلاءم مع وظيفتها الخطيرة التى وظفوها فيها » (١٣٤)

وقد انتقل هذا اللون الأدبى من العصر الجاهلى الى العصر الاسلامى ليزداد نشاطا حتى استحال الى لون آخر فى الشكل والمضمون ، نظرا لاستجابة الخطابة لدعوة الإسلام ، وتأثرها بأسلوب القرآن ، وبجوامع كلمة - صلى الله عليه وسلم - الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب(*)

وإذا كانت الخطابة فى الجاهلية قد بلغت شأوا من الرقى إلا أنها لم تصل الى مستوى الخطابة فى صدر الاسلام التى بلغت قدرا كبيرا من الرقى والازدهار عندما شرفت الحنيا ببعثة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأشرقت شمس الاسلام . عند ذلك وصلت الخطابة أى درجة عالية من النمو والنضج الفنى .

---

(١٣٣) صور ملهمة من واقع المجتمع العربى د/حسن عون : ١٢٩ دار المعارف ١٩٦٧ م

(١٣٤) الأدب العربى بين البادية والحضر د/ابراهيم عوضين : ٣٧٦

(*) طالع الأدب الاسلامى فى عصره الاول د/ صلاح عبدالتواب ص ٣٣ ط ١ دار الطباعة المحمدية ١٩٨١ .

ولا عجب ، فقد داجتمع للخطابة العربية بمجىء الاسلام كل أسباب النمو والترقى ، (★) ٠

و«كانت»الدعوة الاسلامية بقرآنها وبما صاحبها من تبشير بالدين ، وحث على الجهاد ، والخروج للفتوح وما لحقها من تنازع على الخلافه ، وارتداد بعض القبائل ـ عاملا مؤثرا فى ازدهار الخطابه فى هذا العهد ، يضاف الى ذلك نوع النظام الذى ساد الدولة الاسلامية فى مراحلهـــا الاولى ، وما كان بطبعه من ديموقراطية وشورى تتيح للمسلمين ان يناقشـوا ويعارضوا ويعبروا عن رايهـــم فى كثيـــر من الصراحة والاطمئنان » (★) ٠

ومن مظاهر هذا النمو والازدهار اختيـــار ألفاظهـــا وسهولتها ، ومناسبتها لمقتضيات الأحوال ، وتجويد أساليبها التى تأثرت بالقرآن الكريم ، واتساع معانيها وجدتهـــا ، وعمق أفكارها وترابطها وتسلسلهـــا ووضوحهـــا وسمو هدفهـــا ٠

كما ، كان ارعاية أحوال المخاطبين اعتبار كبير ، وقد راعوا حال المتكلم نفسه ، وظروف البيئة الزمانية والمكانية وغيرها من الملابسات فيما ينشئه الخطيب من قول » (١٣٥)

---

(★) الأدب العربى بين البادية والحضر : ٢٨٢ ط ١ مطبعـــة السعادة ١٩٨١ ٠

(★) من أدب الدعوة الاســـلامية لعباس الجرارى : ١١٧ ط ٢ دار الثقافة ـ الدار البيضـــاء ٠

(١٣٥) الخطابة فى صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش : ٤٦٢/١

ولقد جاءت معايير للبلاغة ومقاييسها مطابقة لما كانت عليه الخطابة الاسلامية من ملاءمة الألفاظ للمعانى ومطابقتها لأحوال السامعين ، وهذا ما أشار إليه الجاحظ بقوله :

« ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما » (١٣٦)

فتأتى الألفاظ سهلة رقيقة تخلب الألباب ، وتستثل غضب النفوس كما فى خطبة الصديق فى مجتمع السقيفة وقد حرص فيها على جمع الشمل ، منها : « فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدل ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تحين العرب إلا لهذا الحى من قريش ... » (١٣٧) .

وتأتى ثائرة كما فى خطبة الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ يستنفر بها أتباعه لقتال أهل الشام ومنها قوله :

« أف لكم قد سئمت عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخـــرة » (١٣٨)

« ومتى شاكل ـ أبقاك الله ـ ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج

---

(١٣٦) البيان والتبيين ت هارون ١/١٣٨
(١٣٧) العقد الفريد جـ ٤ ـ ٥٨ . ٥٩
(١٣٨) نهج البلاغة ١/١٣٦ ش الشيخ محمد عبده دار البـــلاغة بيروت ١٩٨٥ م .

من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمينا بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين » (١٣٩)

ولا تختلف ألفاظ الخطابة الجاهلية عن الخطابة الأسلامية كثيرا من حيث اختيارها ووضوحها اللهم إلا ما اكسبه الاسلام معنى جديدا كالصلاة والزكاة والحج ، ولقد بلغت الخطبة درجة فنية عالية على يد الامام على - كرم الله وجهه - الذى كان « يميل كثيرا الى التحبير والتأنق فى صوغ العبارة وتزيينها » (١٤٠)

وقد بدأ هذا فى خطبته التى يحث فيها قومه على الجهاد فيقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى - صلى الله عليه وسلم -

« أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، وألزمه الصغار، وسيم الخسف ، ومنع النصف ، ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا وإعلانا ، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم

---

(١٣٩) البيان والتبيين ٢/٧ ، ٨ هارون .
(١٤٠) الأدب فى عصر النبوة والراشدين د/صلاح الهادى : ١٩٢ ط ٢ سنة ١٩٨٠ م .

ظهريا حتى شنت عليكم الغارات ... يغار عليكم ولا تغيرون وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون .. » (١٤١)

وهذه الخطبة تنطق بجمال الصياغة وحسن الأداء حتى اكتسبت « بتلك الحلة البيانية التى تشرق فيها اللفظة إشراقا » (١٤٢)

وقد سلك فيها الخطيب عدة مسالك للإقناع والتأثير فتارة يسوق الحجة القوية كقوله : ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ... حتى شنت عليكم الغارات »

وتارة عن طريق التقابل كقوله : « ليلا ونهارا وسرا وإعلانا »

وأخرى عن طريق التصوير كقوله وهو يتحدث عن الجهاد :

« فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل »

وهذا التصوير يوضح الأثر السيء الناجم عن التخاذل عن الجهاد فى سبيل الله وهو الالتفاف بثوب الذل .

ولا يعنى وضوح ألفاظ الخطابة فى العصرين خلوها من

---

(١٤١) البيان والتبيين جـ ٢ : ٢٥ ، ٢٦ دار الكتب العلمية بيروت لبنان

(١٤٢) فن الخطابة وتطوره عند العرب لايلليا حاوى : ١٣٤ دار الثقافة بيروت .

الغريب فقد وجد فيها الغريب لكنه كما قال أحد النقـــاد المحـــدثين :

« إنه غريب بالنسبة لنا اليوم ولكنه لم يكن غريبـــا بالنسبة إليهم » (١٤٣)

وكما اهتم الخطباء بألفاظهم اهتمو ابأساليبهـــــم وتعبيراتهم فجودوها ونقحوها حتى جاءت واضحة جليـــة بعيدة عن التعقيد لان الخطيب آنذاك كان « فى جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته غير مستكره لطبيعته ، ولا متكلف ما ليس فى وسعه » (١٤٤)

ومن الخطب الدالة على هذا خطبة الصديق ســـابقة الذكر والتى قالها لما بويع بالخلافة ورسم فيها منهجة وطريقته فى الحكم .

ولعل أهم ما يميز أسلوب الخطبة فى صدر الاســـلام وما بعده التأثر بالقرآن الكريم والبيان النبـــوى الشريف لإلباسه ثوبا من الروعة والجمال والجلال ، وحسن الصياغة وروعة الأداء ، وقد أدرك الخطباء والنقاد أن « أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها ، ومن إشراق البيان ، وجمال الحيباجة ، وعبقرية التصـــــوير والتعبير » (١٤٥)

---

(١٤٣) اسس النقد الأدبى عند العرب د/أحمد بدوى : ٦٤٧ ط ٢ مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ م

(١٤٤) نقد النثر : ١٠٥ ت د/طه حسين والعيادى ط ٣ ط لجنـــة التاليف والنشر ١٩٣٨ م

(١٤٥) الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٢٥١

بل « اكتسب الشعراء والخطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه فى التعبير ، ومناهجه فى سوق الآراءوصياغة الحجج ما جعلهم يحتذون حذوه ، ويتبعون نهجه » (١٤٦)

ولا يخفى أن الإسلام أخذ بيد الخطابة حتى ارتقت شكلا ومضمونا فتاثرت بالقرآن الكريم وبالحديث الشريف ، وقد ظهر هذا « فى عذوبة ألفاظها ، ومتابة أسلوبها ، وقوة تأثيرها ، واقتباسها من القرآن » (١٤٧)

يقول الجاحظ منوها بقيمة اللفظ الحسن وأثره فى النفوس « فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا ، وأعاره البليغ مخرجا سهلا وصحه المحكم دلا منعشقا ، صار فى قلبك أحلى ولصدرك املا » (١٤٨)

ومن الخطب الدالة على التأثر بالقرآن خطبة الصديق - رضى الله عنه - والتى يقول فيها : ( إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه ، وشهيدا على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى حجر منحوت ، وخشب منجور » ثم قرأ « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا

---

(١٤٦) السابق : ٢٥٦

(١٤٧) تاريخ الأدب العربى لاحمد الزيات : ١٩٢ دار الثقافة - بيروت ١٩٧٨ م .

(١٤٨) البيان والتبيين ١ : ٢٥٤ هارون

(١٤٩) سورة يونس آية : ١٨

ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١٤٩) وقالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » ) (١٥٠) ٠

ومما لا شك فيه أن للقرآن الكريم أثره فى التعبير والفكرة والإقناع ٠

ومن الخطب أيضا التى وضح فيها التأثر بالقرآن الكريم خطبة الوداع ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك (١٥١) ٠

وكان الخطباء والنقاد « يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل ، وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع»(١٥٢)

وكما تأثر الخطباء فى أساليبهم بالقرآن الكريم تأثروا بالبيان النبوى الشريف فجاءت لفاظهم سهلة واضحة ، وعباراتهم متماسكة بعيدة عن التكلف والتصنع ومحسناتهم كذلك ، كما جاءت معانيهم رائقة مستقاة من البيان النبوى الشريف ، وكان لهذا أثره فى النفوس التى سرعان ما استجابت لسحر بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقتنعت به ولا غرو فهو « نبى يعتمد على الصدق الملجم والإقناع المفحم » (١٥٣)

وكلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « نسق بيانى جديد

---

(١٥٠) الزمر آية : ٣
(١٥١) جمهرة خطب العرب ١/٦٢
(١٥٢) البيان والتبيين ١ :: ٦٥ دار الكتب العلمية بيروت لبنان
(١٥٣) البيان النبوى د/رجب البيومى ١/٩٣ ط دار الفكر ١٠٨٠ م

على الأدب العربى إذ لم يسبق ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحد إليه ، ولا عرف مثاله لأحد قبله حتى قال له الصديق مرة : لقد طفت على العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى » (١٥٤)

ومن الخطب التى تأثرت ببيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ حيث يقول :

« أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحسن السنن سنة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشر الأمور محدثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ثم قال : « الخمر جماع الآثام ، والنساء حبالة الشيطان والشباب شعبة من الجنون » (١٥٥)

والمتصفح للنص يرى فى حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ عن التقوى تأثرا بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إحدى خطبه : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة » (١٥٦)

وفى التحذير من النساء تأثرا بما ورد فى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « فاتقوا الدنيا واتقوا

---

(١٥٤) الأدب العربى بين البادية والحضر : ٣٦١
(١٥٥) البيان والتبيين ٢ : ٥٦ ، ٥٧
(١٥٦) اتحاف الأنام بخطب رسول الاسلام ج محمد خليل الخطيب ١١٦ دار النصر للطباعة الاسلامية ١٩٨٣ .

النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء »(١٥٧)

وفى التحذير من البدع تأثرا بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« وإياكم ومحدثات الامور » (١٥٨)

وهكذا كانت الخطابة الإسلامية تعتمد على الحقائق والمعارف الاسلامية حيث اتخذت منها محورا للدعوة ، ومادة فى الأداء تستشهد عن القران الكريم ، ومن التعاليم الاسلامية (★) .

ومما تميزت به الخطبة الاسلامية وشاع فيها بحؤها بالحمد والثناء على الله بما هو أهله ، وختمها بالسلام كما فى خطبته ـ صلى الله عليه وسلم التى بدأها بقوله : « إن الحمد لله أحمده وأستعينه » وختمها بقوله : « وتحابوا بروح الله بينكم والسلام عليكم ورحمة الله » (١٥٩)

وخطبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أول جمعة صلاها بالمدينة وفيها يدعو الناس الى تقوى الله وخشيته وطاعته وطاعة رسوله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وأنهاها بما يتفق مع المقام ، وقد أطال فيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١٥٧) السابق : ١١٩ .
(١٥٨) السابق : ١١٦ .
(★) طالع الأدب العربى فى صدر الاسلام ١ د/عبد السلام عبد الحفيظ ص ٣٠ سنة ١٩٨٤ .
(١٥٩) اعجاز القرآن للباقلانى / ٤١ ط ١ البابى الحلبى ١٠٧٨ م

وهذا تعبير عن بلاغته التى تأتى مطابقة لمقتضى الحال ، لأن هذه الخطبة قيلت فى أول جمعة لمجتمع جديد فى حاجة إلى رسم الطريق وتحديد المعـــالم ، ووضـــع النقـــاط على الحروف (١٦٠)

ونظرا لطول هذه الخطبة سنأخذ جانبا منها للتـــدليل فقط .

يقول ـ صلوات الله عليه ـ :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأســـتهديه وأومن به ولا أكفره ، وأعادى م نيكفره ، وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، ارسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم، وضلاله من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعه، وقرب الأجل ، من يطع الله ورسوله رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله فإن خير ما اوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وان يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ... الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » (١٦١)

يقول ابن قتيبة : « تتبعت خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجدت أكثرها الحمد لله نحمده ونستعينه،

---

(١٦٠) راجع البيان النبوى : ٦٧
(١٦١) جمهرة خطب العرب ١/١٤٨ ، ١٤٩

ونؤمن به ونتوكل عليه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » (١٦٢)

وقد بدا هذا فى خطبة الوداع سالفة الذكر ، كما ختمها عليه الصلاة والسلام بـ « السلام »

ويغنز أن تأتى خطبة خالية من هذا الاستهلال كمثل فى خطب القتال ، وخطبة سيدنا عثمان بن عفان التى القاها عندما نقم عليه الناس فوقف خطيبا واستهل خطبته بقوله : « إن لكل شىء آفة ، وإن لكل نعمة عاهة ، فى هذا الدين عيابون ظنانون ، يظهرون لكم ما تحبون ، ويسرون لكم ما تكرهون » ثم ختمها بقوله : « فمالى لا أفعل فى الحق ما أشاء ؟ إننى لم أكن إماما » (١٦٣)

وسار السلف والخلف على سنة رسول الله فى الافتتاح والختام فى خطبهم ، وقد شاع هذا الأمر فى الخطب الاسلامية حتى أطلقوا على الخطبة (١٦٤) التى لم تبدأ بالتحميد وتفتتح بالتمجيد بأنها « بتراء » فى الغالب ، والخطبة التى لم توشح بالقرآن ، وتزين بالصلاة على النبى العدنان بأنها « شوهاء » (١٦٥)

ومما اختصت به الخطبة الإسلامية أيضا : قوة عاطفتها

---

(١٦٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م
(١٦٣) اعجاز القرآن للباقلانى : ٤٤
(١٦٤ ، ١٦٥) البيان والتبيين ٢/٦٢ ت هارون

انبعاثا من قوة العقيدة وانتصارها ، ولشدة عاطفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان كما يحدثنا سدينا جابر بن عبد الله « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ويقول : أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضـــلالة ثم يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فإلى وعلى » (١٦٦)

ونظرا لشدة عاطفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت خطبه قوية التأثير فى النفوس بالنسبة لأصحابه مما ينتج عنه التهاب عواطفهم بحرارته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وهناك بعض السمات العامة التى يمكن الجمع فيها بين الخطابة الجاهلية والخطابة الاسلامية مع التفاوت فيهـــا ، من هذه السمات : الاستشهاد بالشعر : لقد اقتدى خطبـاء صدر الاسلام برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خطبه وأسلوبه ومنهجه ، ومن ثم خلت خطبهم من الشعر وبخاصة الجاهلى لأنه « يحمل بين أطوائه كل المعانى التى حرمهـــا الاسلام وأزرى بها ، فقد كرهه الاسلام وبغضه » (١٦٧)

وإذا كان الخطيب الجاهلى اعتمد على الشعر والمثـــل

---

(١٦٦) البيـــان النبوى : ٦٠
(١٦٧) الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٢٧١

والحكمة فى توضيح فكرته وتجليتها لسامعيه وإقناعهم بها فإن الخطيب الاسلامى وجد فى القرآن كل مطلب فاستغنى به عن الشعر ومن ثم شاع الاستشهاد بالشـــــعر فى خطب الجاهليين وقل فى خطب الإسلاميين وبخاصة فى عصر صدر الاسلام ، ولقد سايرت هذه القلة الاسلام ، وسارت فى ركابه وتخلقت بأخلاقه ، وقصد بها الخطيب توضيح الفـــكرة ، وتعميق المعنى ، ونقل مشاعره وأحاسيسه إلى سامعيه كى ينفعلاوا بفكرته المرادة أو المبتغـــاة .

يقول أبو بكر الصديق (١٦٨) مبينا فضل الأنصار على المهاجرين تطييبا لخاطرهم :

« يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم فى ظلابنا ، وشاطرناكم فى أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد وإن طال به الأمد ، فنحن وذلك كما قال طفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين ازلفت
بنا نعلنـــا فى الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمنـــا
تلاقى الذى يلقـــون منا لملت

هم أســـكنونا فى ظلال بيوتهم
ظـــلال بيـوت أوطأت وأظلت

---

(١٦٨) جمهرة خطب العرب ١ : ٧٤

ولقد تنوعت الجمل الخطابية فى عصر صدر الاسلام طولا وقصرا ولم يغلب عليها القصر كما كان فى الجاهلية ، ولما تأثر الخطباء وبخاصه الخلفاء الراشدون بالقران الكريم وببيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - « تسرب هذا البيان إلى اجزاء نفوسهم ، وأخذ بمجامع قلوبهم » (١٦٩) ومن ثم انعكس هذا على جملهم وتعبيراتهم وأساليبهم فجاءت محكمة الربط ، وتنوعت جملهم بين الطول والقصر ، وقد بدا هذا فى خطبة الإمام على سالفة الذكر التى بحث فيها قومه على الجهاد .

كما تنوعت الخطبة بين الطـــول والقصر حيث كان الخطباء يجعلون لكل مقام مقالا ، ولكل حال مقتضاها ، فمتى اقتضى الموقف الإيجاز كان الايجاز أبلغ ، ومتى اقتضى الاطناب والتطويل كان الإطناب أبلغ ، وحينئذ يكون الايجـــاز فى موضعه كالإطناب فى موضعه ، وإذا كان إيجاز الخطبـــة وقصرها هو الغالب فى العصر الجاهلى فإننا نرى هذا إلى حد ما فى خطب عصر صدر الاسلام لتأثر الخطباء فيه برسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقتدائهم بأسلوبه الخطابى الذى غلب عليه الايجاز ، والبلاغة الإيجاز ، ومن لم يستطع الإيجاز فليس ببليغ (١٧٠)

ومن الخطب الدالة على هذا خطبته - صلى الله عليـــه

---

(١٦٩) تاريخ الأدب العربى ( العصر الاسلامى ) د / شوقى ضيف : ١٢١ ط ٩ دار المعارف

(١٧٠) انظر نقد النثر لقدامة : ٩٦ ت د/طه حسين وعبد الحميـــد العبادى ط ٢ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م

وسلم — فى توجيه الناس وإرشادهم بأمور الدين والدنيا فى دقة وإيجاز :

« إن أكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وإن نكم نهـــاية فانتهوا الى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » (١٧١)

وكذلك خطبة الفاروق عمر — رضى الله عنه — التى آثر فيها الإيجاز وفيها يقول : « إنما مثل العرب مثل جمل أنف أتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » (١٧٢)

ومن الخطب الطوال خطبته — صلى الله عليه وسلم — فى أول جمعة صلاها بالمدينة ، وخطبة الوداع التى لخص فيها قواعد الشرع الحكيم وقد سبق ذكرهما .

وقد خطب — صلى الله عليه وسلم — ذات مرة من لدن العصر حتى لم يبق من الشمس إلا صفرة على أطراف السعف فقد روى عن أبى سعيد الخدرى قال :

« صلى بنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صلاة

---

(١٧١) جمهرة خطب العرب ١ : ١٥٢
(١٧٢) الســـابق ١ : ٢١١

العصر بنهار ، ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وكان فيما قال : ان الدنيا حلوة خضرة ، و ن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، وكان فيما قال : ألا لا يمنعن رجلا هيبه الناس أن يقول بحق إذا علمه ، قال فبكى أبو سعيد فقال قد — والله — رأينا أشياء فهبنا فكان فيما قال : ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة ، يركز لواؤه عند إسته ، فكان فيما حفظنا يومئذ : ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمنا ، ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا — ثم قال أبو سعيد الخدرى — وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقى منها شيء ؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » (١٧٣)

يقول الأديب مصطفى صادق الرافعى معلقا على هذا الموقف ببيان مدى طول هذه الخطبة التى جنحت إلى الإسهاب والتطويل :

« وهذه مدة لا تقدر فى عرفنا بأقل من ساعتين ، وحسبك بكلام من البلاغة النبوية يستوفيهما ، بيد أن الإقلال كان الأعم الأغلب حتى ورد أنه كان يأمر بقصر الخطبة ، فروى

---

(١٧٣) سنن الترمذى — أبو عيسى محمد بن عيسى تحقيق احمد شاكر ج ٤ : ٤٨٣ وما بعدها ط ٢ ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده ١٣٩٨هـ

أبو الحسن المدائنى قال : تكلم عمار بن ياسر يوما فأوجز فقيل له لو زدتنا فقال أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإطالة الصلاة وقصر الخطبة ، وقد ورد فى الحديث « نحن معاشر الانبياء فينا بكاء » أى قلة فى الكلام (١٧٤)

ويقول صاحب زاد المعاد مبينا خضوع خطب النبى للظروف ومقتضيات الأحوال : « كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب فى كل وقت بما تقتضيه حاجة السامعين ومصلحتهم، وكان يقصر خطبته أحيانا ويطيلها أحيانا بحسب حاجة الناس ، وكانت خطبته العارضة اطول من خطبته الراتبة . وكان يخطب النساء على حدة فى الأعياد ويحرضهن على الصدقة ... » (١٧٥)

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال من البلاغة حيث يقول علماء البلاغة : « إن بلاغة الكلام هى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته » (١٧٦)

وبهذا يتضح لنا أن الخطبة الإسلامية كانت تأتى مطابقة لمقتضى الحال فتطول وتقصر حسب الحاجة وعليه « فلا يستعمل الإيجاز فى موضع الاطالة ليقصر عن بلوغ الارادة ، ولا الاطالة فى موضع الايجاز فتجاوز مقدار الحاجة » (١٧٧)

---

(١٧٤) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ٢ : ٢٠٢ نشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان ١٩٧٤ م ، ومن يطالع نسيم الرياض فى شرح شفا القاضى عياض للشيخ الخفاجى ٤٠٨ جـ ١ ط الأزهرية يجد هذا الحديث .

(١٧٥) زاد المعاد جـ ١ : ٤٨ ط المطبعة المصرية ومكتبتها .

(١٧٦) الايضاح للقزوينى جـ ١ : ٨٠ ط دار الكتاب اللبنانى بيروت

(١٧٧) العبارة وتأليفها ١ د/محمد السعدى فرهود : ١٨٠ ط زهران ١٩٧٢ م

ولقـــد شاعت وســـائل الاقناع فى أسلوب خطب صدر الاسلام ، فتنوع بين الخبر والإنشاء بقصد الاستمالة والتأثير والوصول الى المعنى المراد بعيدا عن التكلف المقوت، والتصنع المذموم .

وهذا التنويع طبقا لعاطفة الخطيب وانفعالاته ، فإذا ما هدأت عاطفته وثورته فاضت القريحة بأساليب خبرية ، وإذا ما ثارت ثائرته جادت قريحته بأساليب إنشائية .

يقول بعض النقاد مبينا قيمة التنويع فى الأساليب بين الخبريه والإنشائية : « ومما يحقق للخطيب التأثير ، وينفخ فى أســـلوبه حيـــاة متجـــددة أن يراوح بين الخبر والإنشـــاء » (١٧٨)

والناظر فى خطبة الوداع يرى النوعين معا ، كما يرى هذا فى خطبة الإمام على (١٧٩) كرم الله وجهه ومنها قوله وهـــو خبـــرى :

« أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه ثوب الذل ، وشمله البلاء » وقوله : «هذا أخو غامد قد وردت خيلة الأنبارى،وقتل حسان ـ أو ابن حسان ـ البكرى، وازال خيلكم عن مسالحها ، وقتل منكم رجالا صالحين »

---

(١٧٨) فن الخطابة د/أحمد الحوفى ١٧٨ ط ٥ دار نهضـــة مصر للطبع والنشر .

(١٧٩) البيان والتبيين ٢ : ٢٥ ، ٢٦ دار الكتب العلميـــة بيروت لبنـــان .

وقد تعددت طرق الأساليب الإنشائية فى هذه الخطبة فمن النداء قوله : « يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحـــلام الأطفال وعقول ربات الحجال » ومن التعجب والاستفهام الذى أريد به الإنكار قوله : « لله أبوهم : وهل أحد منهم أشد بأسا مراسا منى ... » ؟

ومما لا شك فيه أن للأسلوب الإنشائى دوره الفعال فى جذب انتباه السامعين ، والعمل على مشاركتهم للخطيب فيما يقصد إليه .

كما تنوع الأسلوب بين الترسل واحتوائه على بعض المحسنات غير المتكلفة مثل السجع والازدواج أو الموازنة ، وكلها محسنات لا تذهب بالمعنى ، ولا تطغى على الفكرة وإنما الهدف منها التأثير على السامعين والتـــأثير عن طريق الإيقاع الناجم عنها « لما فيه من الجمال وماله من حسن الموقع الذى يشبه وقع القافية فى الشعر » (١٨٠)

وقد غلب أسلوب الترسل على أساليب الخطابة فى عصر صدر الإسلام وذلك لتأثر الخطباء بالقرآن الكريم الذى أغناهم عن وسائل الإيقاع الأخرى فى التأثير كالســـجع - مثلا - ولعل السر فى قلة استخدام السجع وشيوع الترســـل فى أساليب خطباء هذا العصر « يرجع بعضه الى اســـتخدام الجاهليين له فى أغراض لا يحبها الإسلام ولا يقرها ، وبعضه

---

(١٨٠) الخطابة فى صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش ١ : ٤٦٠

إلى أن القرآن والاسلام والحضارة قد ردتهم الى نوع من التهذيب حببت إليهم طبيعة التفكير والتعبير » (١٨١)

« والإرسال هو أرقى مراحل النثر الأدبى » (١٨٢)

وقد ارتقت الخطابة فى هذا العصر أسلوبا وفكرة وأداء وكان لهذا دور فى التاثير على النفوس وإقناعها بالغـــرض « وحين يرتقى النثر ويتجه الى مخاطبة العقل ، ويعتمد على الجدل والبراهين ، وحيث تتجه عناية الخطيب الى المعنى والصورة ويجعلهما غايته تتقل العناية بالإيقاع الموسـيقى ، والازدواج اللفظى » (١٨٣)

ومن الخطب التى شاع فيها الترسل خطبة الصـــديق - رضى الله عنه - وفيها واسى المسلمين بعد لحـــوق النبى بالرفيق الأعلى ، يقول الصديق :

« أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا ، وإن الله قد اختار لنبيـــه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه الى ثوابه ، وخلف فيـــكم كتابه وسنة نبيه » (١٨٤) .

---

(١٨١) الخطابة فى عصر صدر الاسلام : ١ : ٤٥٧
(١٨٢) الخطابة فى عصرها الذهبى : ١٧
(١٨٣) الســـــابق : ١٧
(١٨٤) السيرة النبوية لابن هشام ٤/٢٢٤

ومع هذا الترسل فإننا نرى فى الخطبة حسن التقسيم والموسيقى الجميلة .

أما من ناحية المحسنات الأخرى كالسجع والازدواج ونحوهما فإن لم تكن بنفس الدرجة التى كانت عليها فى الجاهلية من حيث الشيوع والانتشار بل خف استعمالها . ولكن مع هذا وردت فى كلام النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد ذكر صاحب الصناعتين أن السجع الخالى من التكلف المصاغ حسب الفطرة كان يأتى أحيانا فى كلام النبى - صلى الله عليه وسلم - وحين أنكر على الكهان سجعهم لما فيه من التكلف الممقوت ، والتشدق المذموم ، فالرسول إذن أنكر السجع لتكلفه أما ما برىء منه فلم ينه عنه .

« ولو كرهه - عليه الصلاة والسلام - لكونه سجعا لقال : أسجعا ؟ ثم سكت وكيف يذمه ويكرهه ، وإذا سلم من التكلف وبرىء من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه »

وقد روى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبة قس بن ساعدة مع عدم خلوها من السجع وأعلن رضاه عنها .

وساق أبو هلال نموذجا يدل على ورود السجع فى كلامه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « من ذلك ما حدثنا به يوسف الإمام بواسط قال : حدثنا محمد بن خالد بن عبدالله [illegible] عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام قال : لما قدم

النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة انجفل الناس قبله ، وقيل قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجئت فى الناس لانظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت انه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شىء تكلم به ان قال : أيها الناس افشوا السلام ، واطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الالفاظ ، واتباع الكلمة اخواتها كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة وإنما أراد ملمة ، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إرجعن مأزورات غير مأجورات وإنما أراد موزورات من الوزر فقال مأزورات لمكان مأجورات قصدا للتوازن وصحة التسجيع .

فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف ، والخلو من التعسف » (١٨٥)

كما سبق أيضا نموذجا يدل على وجود الازدواج فى كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد خاطب الأنصار مفضلا إياهم على غيرهم فقال : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع ، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ « رحم الله من قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم » (١٨٦)

والناظر فى إحدى خطب الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ

---

(١٨٥) الصناعتين : ٢٨٦ ت محمد قميحة ط ٢ سنة ١٩٨٤ دار الكتب العلمية بيروت .

(١٨٦) المسابق : ٢٨٨ ، ٢٨٩

يرى السجع والازدواج معا يقول الامام على : « واعلموا عباد الله أنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يرسلكم هملا ، علم مبلغ نعمه عليكم ، وأحصى إحسانه إليكم ، فاستفتحوه واستنجحوه واطلبوه إليه واستمنحوه ... » (١٨٧)

وجاءت المحسنات هنا جارية على الفطرة وموائمة للطبع السليم ، وهذا ناشىء من التأثر بالقرآن وبالبيان النبوى الشريف الذى سلم من التكلف والإغراب ، وقد بدا هذا فى خطبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإيقاع الناشىء عن استخدام هذه المحسنات يكون له أثره الفعال على نفوس الناس ومشاعرهم حيث « يستعين به الخطيب على إثارة الانفعالات » (١٨٨)

واستحسن النقاد العرب قديما وحديثا مجىء السجع والازدواج فى أساليب الخطابة بعيدا عن التكلف والتعقيد فقال أبو هلال العسكرى : « واعلم أن الذى يلزمك فى تأليفه الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع ، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد » (١٨٩) .

ولم يكثر استخدام الحكم والأمثال فى خطباء هذا العصر كما كان فى الجاهلية ولعل هذا مرده الى تأثرهم بالقرآن الكريم المعجز المقنع ، والبيان النبوى الصادق المفحم يرشحون

---

(١٨٧) نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده ٢ : ٤٤٧
(١٨٨) النقد الأدبى الحديث د/غنيمى هلال : ٦٥ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٣ م .
(١٨٩) الصناعتين : ١١٩ ط ١ مطبعة محمود بك ١٣١٩ هـ

من رحيقهما ، وينهلون من معينهما الثرار « لأن الخطبـــاء انبهروا بحكم القرآن ومواعظه كما راعتهم أمثانه فاستمعوا إليها وأخذوا منها ، ومن حكم الرسول وأقواله » (١٩٠)

ووجدوا فيهما الغناء عن الحكم والأمثال بما فيهمـــا من بيان رائع وفكر راق ، وحجج دامغة ، وبراهين ساطعـة تفند حجج الخصوم وتبطلها .

فأفادوا منهما وبخاصة القرآن الكريم فى الأسلوب ودقة التعبير ، وروعة الأداء ، وجمال التصوير ، وشدة الإقناع والتأثير « وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه ، وإحكام نظمه ، فإنك تجد العبارة بل اللفظة حين تأتى فى سياق كاتب أو خطيب أو شاعر تضىء كأنها الشهاب الساطع » (١٩١) .

وورد استخدام الحكم والأمثال فى خطابة هذا العصر « فى خطب الإمام على بخاصة حيث احتلت الحكم والأمثال مكانا بارزا فيها » (١٩٢) ومنها قوله : « أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجـــرب تورث الحسرة ، وتعقب الندامه ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، وخلت لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصـح بنصحه ، وضن الزند بقدحه ... » (١٩٣)

---

(١٩٠) الخطابة فى عصر صدر الاسلام ١ : ٤٥٣

(١٩١) تاريخ الأدب العـــربى ( العصر الاســـــــلامى ) د / شوقى ضيف : ٣٤ ط ٩ دار المعارف .

(١٠٢) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ٢٠١ ط ٢ سنة ١٩٨٠ م

(١٩٣) نهج البـــلاغة : ١٨٣ .

ولعله تلاحظ الحكمة فى النص والمثل فى قوله : « لو كان يطاع لقصير أمر » (١٩٤)

وعلى الجملة فإن أسلوب الخطابة فى هذا العصر كما قيـــل :

« هو الأسلوب الفطرى الذى يساوق الطبع ، ويوائم السليقة ولا يعتسف فى لفظ أو فكر أو خيال ، فهو لين هادىء أو ثائر عاصف على حسب المقتضيات ، ووفقا للأحـوال ، مع وضوح اللفظ ، وسهولة الأسلوب ، والانسجام التام فى بناء الكلمات ، وترك السجع المرذول ، وهجر الوحشى ، والبعد عن التكلف ، والإيجاز فى موضع الايجاز والاطناب فيما يستدعى الإطناب والاكثار » (١٩٥)

والمطالع لخطب عصر صدر الاسلام يرى انها تختلف عن خطب الجاهليين التى كانت تتسم بعدم العمق أحيـــانا ، وضيق الأفق وتحديد الأغراض والمعالم ، أما الخطبة فى عصر صدر الاسلام فكانت أوسع مجالا ، وأرحب ميدانا ، وتنوعا فى الأغراض والموضوعات وذلك لاختلاف الدواعى والأسباب والمؤثرات فى العصرين ، ففى عصر صدر الاسلام اصطبغت الخطابة بالصبغة الاسلامية ، وأضفى عليها الاسلام ثوبا

---

(١٩٤) هذا مثل ضربه الامام على - كرم الله وجهه - لتصـــوير حاله مع قومه بحال « قصير » مع سيده الذى عصى أمره حينما اشار عليه بأن لا يتزوج « الزباء » ملكة الجزيرة لكنه خالف أمر « قصير » وتزوج بالملكة فقتلته بعد زواجهما فقال « قصير » : « لايطاع لقصير أمرا »
انظر الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٢٨

(١٩٥) المـــــــابق : ٥٩

من الجلال والعمق والتقدير ، واستمدت معانيها من روحه وتعاليمه ، وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق ، (١٩٦)

و « قد نمت الخطابة الاسلامية وتطورت فاكتست سمات وخصائص ميزتها عن الخطبة الجاهلية ، (١٩٧) وقد ظهر هذا فى رقى الأفكار وعمقها وترابطها .

وقد وحد الاسلام بين الخطباء فى توجهاتهم ، وطريقة عرضهم لأفكارهم ومعانيهم ولا عجب فقد « جعلهم جميعا يدينون بدين واحد . ويعتقدون عقيدة واحدة ، ومن ثم فتفكيرهم يسير فى مخطط واحد لا يختلف فى موضوعه أو أساسه من شخص الى آخر ولكنه يعتمد على أسس ثابتة واحدة ، (١٩٨)

ومن ثم جاءت أفكارهم واضحة قوية متلاحمة النسج ، تشتمل على العديد من المعانى والأغراض حيث « تناولت أمور الدين والملة فشرحت العقائد وبينت معالم الشريعة والأحكام المنظمة للحياة الشخصية ، والمعاملات بين الناس ، وعلاقة المكلفين بالأحكام ، والحلال والحرام وغير ذلك مما يستدعيه نشر الدعوة والرد على الخصوم ، والوعظ والإرشاد ، (١٩٩)

---

(١٩٦) تاريخ الأدب العربى ( العصر الاسلامى ) ١٢٩
(١٩٧) الأدب العربى بين البادية والحضر : ٣٨٣
(١٩٨) السابق : ٣٥٠
(١٦٩) الخطابة فى صدر الاسلام ١ : ٤٤٣

ففى مستهل هذا العصر كانت معانى الخطابة تدور فى محيط الدعوة الى الاسلام وتوحيد الله ، وشرح عقيدة الإيمان به ، وإقناع الناس بالامور الاخروية وعلى رأسها الحساب والبعث .

وكان - صلى الله عليه وسلم - « يخطب فى نفس معانى القرآن المكية متحدث عن رسالته ، وداعيا الى وحدانية الله مبينا أنه يهيمن على الناس فى أعمالهم ، وأنه سيبعثهم يوم القيامة ليجزى بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا (٢٠٠)

من هذا خطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى قريش حين أمر أن يصدع بالدعوة ، ونادى فيهم قائلا : يا معشر قريش فاجتمع الناس حوله من كل حدب وصوب يصغون إليه . فقال : « إن الرائد لا يكذب أهله ... » وقد سبق ذكر هذه الخطبة .

وكانت معانى خطب هذا العصر دينية بلغت شأوا كبيرا فى بلوغ الغاية وإصابة الهدف ، ونصاعة الحجة ، والصدق فى تبليغ المراد ، لأن الاسلام نفخ فيها من روحه ، وقد وضح هذا فى خطبة أبى بكر الصديق التى تأثر فيها بالقرآن وعمل على رأب الصدع بين المهاجرين والأنصار فى مجتمع السقيفة ، وفيها يقول :

« أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلاما ... » وقد سبق ذكر هذه الخطبة .

---

(٢٠٠) تاريخ الأدب العربى ( العصر الاسلامى ) : ١١٥

ولعل ما يميز الخطابة فى عصر صدر الاسلام وحـــــدة الموضوع وعمق الأفكار وترابطها ، والتأثير بالوسائل التى تميل القلب وتشوق الفؤاد ، ولا عجب فقد لقيت الخطابة فى ظل الاسلام كل تقدم ورقى وازدهار ، وقد ظهر هذا فى كثير من خطب هذا العصر وبخاصـــــة خطب الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ ومنها خطبته التى يحث فيها الناس على تقوى الله وخشيته وطاعته وحمده والثناء عليه ، وتسابقهم الى فعل الخير ، يقول الإمام على :

« أوصيكم أيها الناس بتقوى الله وكثرة حمده على آلائه إليكم ونعمائه عليكم ، وبلائه لديكم ، فكم خصكم بنعمه ، وتدارككم برحمته ، أعورتم له (٢٠١) فستركم ، وتعرضتم لأخذه فمهلكم ، وأوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه ، وكيف غفلتم عما ليس يغفلكم ، وطمعكم فيمن ليس يمهلكم ؟ فكفى واعظا بموتى ، عاينتموهم ، حملوا الى قبورهم غيـــر راكبين ، وأنزلوا فيها غير نازلين ... فابقوا ـ رحمكم الله ـ ركبين ، وانزلوا فيها غير نازلين .. فسابقوا ـ رحمكم الله ـ الى منازلكم التى أمرتم أن تعمروها والتى رغبتم فيهـــا ودعيتم إليها ... » (٢٠٢)

والمتصفح للموضوعات والأغراض فى الخطابة الجاهلية يمكنه القول بأن الاسلام تناول بعضا منها بالتطوير والتهذيب بحيث تتمشى مع روح الاسلام وتعاليمه السمحة ، من هذه

---

(٢٠١) أى ظهرت عوراتكم وعيوبكم

(٢٠٢) نهج البلاغة ش الشيخ محمد عبده : ٣٨٥ وما بعـــدها ط الرحمـــانية .

الموضـــوعات والأفكار : الفخر بمحاسن القـــوم وهو المعروف فى الجاهلية بالمفاخرات والمنافرات ، وقد بدا هذا فى خطبـــة عطارد بن حاجب بن زرارة خطيب وفد بنى تميم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقيام قيس بن الشماس خطيب الرسول بالرد عليه بأمر منه - صلى الله عليه وسلم - وقد سبق ذكر هذا .

بيد أن تناول خطيب بنى تميم وطريقة عرضه للفكرة تختلف عن عرض قيس لها ، فخطبة بنى تميم يبدو عليهـــا صبغة من الجفوة والشدة والصلف والغرور فضلا عن نسبة الفضل إليهم دون الله عز وجل وهذا فخر مذموم يبرأ منه الاسلام ، أما رد قيس فقد بدا فيه الاعتراف بنعمة الله ونسبة الفضل إليه على أنه صاحب النعمة وله اليد الطولى فى كل شىء ، فافتخر قيس بظهور النبى محمد من بينهم ، ومؤازرتهم ومناصرتهم له ، ووقوفه بجانبه صفا واحدا ، وهذا فخـــر محمود ، كما بدا هذا الفخر فى خطبة الصديق فى سقيفة بنى ساعدة حيث ذكر مناقب المهاجرين وفضلهم على إخوانهـــم الأنصار ، لكنه فخر فى إطار الدين ، استمد فيه الصـــديق خطوطه ومعانيه من روح الاسلام الحنيف .

ومن المعانى والأفكار التى أصابها التطور والتهذيب فى الاسلام التحريض على الحرب والقتال والأخذ بالثأر كمـــا كان فى الجاهلية ، وبمجىء الاسلام تلاشت هذه النزعـــة وصار بدلا منها الدعوة الى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله وبيان ثواب ذلك ، وخطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وغيرها من الخطب الاسلامية مليئة بهذه الفكرة ،

من هذا خطبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة بدر التى يقول فيها « أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وانهاكم عما نهاكم عنه ، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالخير ويحب الصدق ، ويعطى الخير أهله على منازلهم عنده ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم ، وتدرك به النجاة فى الآخرة ... وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ... » (٢٠٣)

وأيضا خطبة الفاروق عمر — رضى الله عنه — التى يحث فيها الناس على الجهاد فى سبيل الله وفتح البلدان ، وقد تأثر فيها بالقرآن الكريم .

يقول الفاروق : « إن الحجـــــاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطراء (٢٠٤) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال : « ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه ومعز ناصره ... »

ولما أمر أبا عبيدة على الناس قال له : « إســـــمع من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأشركهم فى

---

(٢٠٣) الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام: ٢٦٧ ، ٢٦٨

(٢٠٤) الطراء ج طارىء من طرأ عليهم كمنع : اتاهم من مكان او خرج عليهم منه فجأة .

الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحهـــا إلا الرجـــل المكيث (٢٠٥) الذى يعـــرف الفرصـــة ... » (٢٠٦)

وإذا كان من الخطب الجاهلية ما دعا الى عبـــادة الله وتوحيده كما فى خطبة قس بن ساعدة فإن الخطبة الاسلامية تناولت هذا المعنى وكان شغلها الشاغل وبخاصة فى المراحل الأولى من الاسلام ، فقد خطب - صلى الله عليه وسلم - فى جمع من قريش يحذرهم من الشرك والطغيان وفيها يقول : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعـــا ما كذبتكم .... » وقد سبق ذكرها .

كما تناولت الخطبة الاسلامية بعض معـــانى خطب الجاهليين واضفت عليها روح الاسلام - بتضمينها بعض آيات القرآن الكريم - كالدعـــوة الى السلم وحقن الدماء ، وخطب النكاح ، والصلح بين الناس ، وتوجيه النصح لهم . وتوصيتهم بتقوى الله ، وتبصيرهم بأمور الدين كما فى خطبة الصديق - رضى الله عنه - فيقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنـــا

---

(٢٠٥) المكيث : المتمكن الهادىء

(٢٠٦) جمهرة خطب العرب : ٢٢٢ ، ٢٢٣ ط ٢ الحلبى ١٩٦٢ م

خاشعين » (٢٠٧) ثم اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم ، وعوضكم بالقليـــــل الفانى الكثير الباقى ، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره ، فثقوا بقوله ، وانتصحوا كتابه ، واستبصروا به ليوم الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ... » (٢٠٨)

وإذا كان العرب فى الجـــــاهلية عرفوا خطب الوعظ والإرشاد فإن الاسلام جاء بنوع منظم فى هذا الصدد يقول بعض الأدباء :

« ولكن الواقع أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون شيئا من هذا التبيل يتضمن بعض المواعظ التى تدخل فى نطاق الدين ، ومع ذلك فإن الاسلام جاء بنوع منظم ومنسق من الخطب لم يكن معروفا من قبل ألا وهو خطبة الجمعـــة والعيـــدين » (٢٠٩)

وبهذا أصبحت الخطابة شعيرة من شعائر الاســـــلام وتمثل جزءا من عبادته بعد أن كانت أداة من أدوات الدعـوة وأدى هذا الى رسوخ أقدامها واتساع مجالها ونهوضها .

و « لعل أهم ما يميز الخطابة الاسلامية عن الخطابة الجاهلية طغيان الروح الاسلامى عليها فكرا وموضوعا ، فهى

---

(٢٠٧) سورة الأنبياء من الآية : ٩٠
(٢٠٨) العقد الفريد ٤ : ٦١ ، ٦٢ ت أحمد أمين وزميليه .
(٢٠٩) من أدب الدعوة الاسلامية : ١٢٠ عباس الجرارى ط ٢ دار الثقافة الدار البيضاء .

فى مختلف ألوانها متأثرة بمثل الاسلام وقيمه ، ثم إنها غدت فى هذا العصر متناسقة البناء ، مترابطة الأجزاء ، واضحة الهدف والغاية » (٢١٠)

ولقد احتوت أساليب خطباء هـــذا العصر على بعض الصور والأخيلة التى قصد بها الإمتاع الفنى والاقنـــاع والتأثير ، وتأثر هؤلاء الخطباء فى هذا الصدد بأســـاليب القرآن الكريم ومن ثم تأثروا بأساليبه التصويرية والتخييلية حيث « إن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن الكريم ... » (٢١١)

ومع هذا قلت الصور والأخيلة فى اساليب الخطبـــاء للاعتماد على الصدق فى الدعوة ، والاقناع بالبراهين والحجج الساطعة ، ومن ثم كثرت الأساليب الحقيقية التقريرية التى تحدث دويا فى النفوس بطريق مباشر كما فى خطبة الرسول — صلى الله عليه وسلم — والتى قدم لها بقوله :

« أرأيتم لو اخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد ان تغيـــر عليكم اكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا ، ثم يبدأ خطبته بعد ذلك ويقول : « إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو انى لرســـول

---

(٢١٠) السبـــــابق : ١٢٣

(٢١١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم للشيخ سيد قطب : ٣٥ دار المعارف ط ٨ سنة ١٩٧٥ م

الله اليكم خاصة والى الناس كافة ، والله لتموتن كمـــا تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون .... »

ومن خلال النص يبدو ان الرسول عليه الصلاة والسلام آثر التعبير الحقيقى على الخيال والتصوير ، فلم يوجـــد سوى صورتين تشبيهيتين وهما ( لتموتن كما تنـــامون ، ولتبعثن كما تستيقظون )

يقول الدكتور : محمد رجب البيومى معلقا على هـــذه الخطبة ومشيرا الى إقناع الرسول لمن حوله ، وكيف خلب قلوبهم ؟

« أرأيت الى الإقناع الملزم يأخذ به محمدا العقول ؟ لقد سألهم عن صدقه فاعترفوا به ، ثم أقسم لهم بما يثبت هذا الصدق ويؤكده حتى إذا أعلن رسالته إليهم خاصة والى الناس كافة لم يترك الأمر دون تذليل فهناك حساب وبعث وجزاء ، وإن كانوا ينامون فالموت كالنوم حقيقة واقعة ، ولئن كانوا يستيقظون فالبعث كاليقظة حقيقة أخرى . ووراء البعث جزاء وحساب ، وإنها لجنة وإنها لنار » (٢١٢)

ولا يخفى أن التصوير له أثره الفعال فى نقل مشـــاعر الخطيب وبث أفكاره الى سامعيه فى قوة وصدق ، ومن ثم لجأ اليه عدد من الخطباء الذين تأثروا بما جاء فى القرآن الكريم « من عبقرية التصوير والتعبير » (٢١٣) وأدركوا أن

---

(٢١٢) البيـــان النبـــوى ١ : ٦٤

(٢١٣) الحياة الأدبية فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام : ٢٥

« المجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا فى القلوب » (٢١٤)

ومن الخطب التى تجمع بين الحقيقة والخيال والتصوير للإقناع والتأثير خطبة سيدنا عثمان بن عفان - رضى الله عنهما - ومنها قوله : « فمهلا لا تقتلونى فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة : رجل زنى بعد إحصانه ، أو كفر بعد إيمانه ، أو قتل نفسا بغير حق ، فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم » (٢١٥)

ومن أساليب التصوير التعبير الكنائى فى قوله : لا يحل »

ومن الأساليب التصوير التعبير الكنائى فى قوله : « فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم » وهو كناية عن قتلهم وعدم إفلاتهم من حذا السيف

وتأثر الخطباء بالبيان النبوى الشريف وبما فيه من تصوير وتخييل لأن « للتصوير فى البيان النبوى مكانة أى مكانة ، اعتمد صاحبه فى توضيحه وإفصاحه على الأخيلة العربية التى التقطتها مخيلته من البيئات العربية المختلفة ، واختزنتها على مدى سنى النشأة والتكوين ، فأما كان دور

---

(٢١٤) العمدة ١ : ٢٦٦ ت محمد محيى الدين ط ٤ دار الجيل بيروت ١٩٧٢ م

(٢١٥) اعجاز القرآن للباقلانى : ٤١ ط مكتبة الحلبى ١٩٧٨ م

البعثة كانت هى المرد الذى استغله بفطرته الخالصة وثقافته القرآنية الجديدة ليغذى به بيانه فى اقتدار » (٢١٦)

ومن الصور البلاغية التى كثر استخدامها فى أساليب الخطباء الاستعارة كما فى خطبة الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهو يتحدث عن القرآن ، ويبين مكانته فى سعادة الناس : « وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ، ولا يطفأ نوره ، فثقوا به ، وانتصحوا كتابه ...» (٢١٧)

وفى هذا النص أراد ابو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أن يبين مكانة القرآن فى النفوس وأثره فى صلاح الأمم والجماعات عن طريق التعبير الاستعارى فى الحرف ( فى ) فى قوله « فيكم » تجسيما للفكرة وتوضيحا لها ، ونقلها للسامعين وإثارة مشاعرهم وإقناعهم بها ، وأريد به التمكين والاحتواء ، كما جعل للقرآن نورا لا ينطفىء ، وهذا تجسيم لمعنويات أو نقل المعقول الى المحسوس أريد به التمسك بكتاب الله عز وجل ، والالتزام بما فيه واتباع هديه ، الى جانب أنه جعل من القرآن شخصا ناصحا أمينا ينتفع الناس بنصحه وتوجيهاته كما فى قوله : « وانتصحوا كتابه »

واستخدم الصديق ـ رضى الله عنه ـ هذا الأسلوب التصويرى لأن التصوير « ينقل النفس من المعقول الى

---

(٢١٦) تأملات فى البيان النبوى : ١٤٢
(٢١٧) جمهرة خطب العرب ١/٧٣

المحســـوس فتأنس به وترتاح له ، وذلك لأن أنس النفس موقوف على أن تخرجها من خفى الى جلى » (٢١٨)

والتشبيه من الصور التى ورد استخدامها فى أســاليب خطباء هذا العصر وقد سبق بيان هذا فى خطبة الوداع ٠

ومما تميزت به الخطابة فى هذا العصر كثرة استخدام التصوير أو المجاز المصـــاحب للبديع فى عبـــارة واحـــدة بهدف توضيح الفكرة ، وإقناع السامعين وإثارة مشـــاعرهم ووجدانهم ، من ذلك ما جاء فى خطبة الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ التى يقول فيها :

« فيا عجبا والله يميت القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم » (٢١٩)

يتضح من النص مجىء الخيال مع البديع فى تعبيـــر واحد ، فنجد الخيال هنا مصحوبا بنغم موسيقى ناتج عن الازدواج فى قوله : « يميت القلب ويجلب الهم » وهو كناية عن الألم والمرارة ، وناتج أيضا عن المقابلة والجنـــاس فى قوله : « اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم » وبين مما سبق أن الصور والمحسنات البديعية التى وردت

---

(٢١٨) التشبيه والتمثيل د/ يوسف الصيوفى ٢٠ مطبعـــــة مايدين ١٩٧٣ م

(٢١٩) البيـــان والتبيين ٢/ ٥٢ ، ٥٥

فى خطب هذا العصر كانت بعيـــــدة عن التكلف والتصنع المبغوض وبخاصة خطب الإمام على فقد « كان أول من عالج السنون الأدبية معالجة فنية ، فخرج عن سنة الإبلاغ ومحض الأداء الى صياغة التعبير وفن الأداء ، فاستقام له أســـلوب مطبوع مصنوع »

وهكذا بدا أثر الإسلام واضحا فى خطب هذا العصر بما أضفاه عليها من روحه ، وأمدها من معينه ، وتأثرها بقرآنه ، وببيان نبيه - صلى الله عليه وسلم - فعذبت ألفاظهـــــا وعمقت معانيها ، ورق خيالها ، وارتقت شكلا ومضمونا ، وأداء وتصويرا بعد أن غلبت عليها الجاهلية من ذى قبل .

والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء الســـــبيل والموفق لما فيه صلاحنا فى ديننا ودنيانا .